دراسات فلسفية

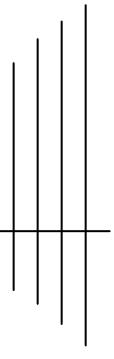

رسالة المشرق

الأصول الدينية و الميتافيزيقية للفكر اليابانى
" نص الكوجيكي نموذجاً "

The Religious and Metaphysical Origins:
« The Kojiki Text as an Example »

د.هالة أبو الفتوح أحمد (*)

ملخص:

كغيرها من الثقافات التي تلتف حول موروث مقدس، كان لابد أن تعالج الثقافة اليابانية إشكالية ضبط العلاقة بين موروثها والتصورات والمعارف الوافدة، سواء كان ذلك الوافد من القارة الأسيوية أو من الغرب الاستعماري الذى كان يرى موانيها محطة هامة لحركة التجارة العالمية. ورغم المحاولات العديدة لتحقيق ذلك، فإنه يلزم التنويه بأن أغلب تلك المحاولات أنشأت في حد ذاتها أشكالا مختلفة من الصراع يسعى كل شكل منها إلى إزاحة الآخر. وإذا كان الوضع الذى شهدته اليابان للعلاقة بين الموروث والوافد كان دوما مرتبطا بطبيعة خطاب السلطة، الذى ينبغي الانسجام والتجاوب معه حتى تتحقق الوحدة السياسية، فإن ذلك يدفع إلى افتراض أن القاعدة التي تتشكل وفقا لها تلك العلاقة المتغيرة ترتبط بسعي دؤوب لخلق بنية ثقافية تؤصل لتمايز تلك السلالة التي تقطن إمبراطورية الشمس المشرقة، وعلى النحو الذى يحقق لها الاكتفاء الذاتي والتفرد. وهكذا تكمن قيمة نص " الكوجيكى " Kojiki ليس فقط في أنه يكشف عن ذلك التساجل بين الوافد والموروث، ومن ثم خلق حالة ثقافية

* أستاذ مساعد بقسم الفلسفة – كلية الآداب– جامعة القاهرة.

استطاعت هضم كل التنوعات بصورة فريدة، بل أيضًا في بلورة منظومة القيم القادرة على معالجة الاضطرابات الناتجة عن التغيرات التي شهدها الواقع في القرن العشرين.

Abstract

Like other cultures that concern themselves with a sacred heritage, the Japanese culture had to deal with the problem of controlling the relationship between its heritage and the perceptions and knowledge coming from the Asian continent or the colonial West, whereas the latter regarded its ports as an important station for the movement of global trade. Despite the numerous attempts to achieve this, it must be noted that most of such attempts have created different forms of conflict, each of which seeks to displace the other.If the situation that Japan has witnessed for the relationship between the inherited and the foreign has always been linked to the nature of the discourse of power, which must be harmonized and responded to in order for political unity to be achieved, then this leads to the assumption that the base according to which this changing relationship is formed can be linked to a tireless questto create a cultural structure that roots for the differentiation of the dynasty that inhabits the Empire of the Rising Sun, in a manner that achieves its self-sufficiency and exclusivity. Thus, the value of the Kojiki text lies not only in that it reveals the controversy between the foreign and the inherited, thus creating a cultural that was able to uniquely digest all the diversity, but also in crystallizing a system of values, capable of dealing with the disturbances resulting from the changes happening in reality in the 20thcentury.

المقدمة:

لم يحظ الفكر الياباني بدراسات فلسفية مماثلة لما حظيت به دراسة الفكر الهندوسي والصيني والفارسي، وكذلك الفكر البابلي والفرعوني والسرياني ولاسيما من زاوية فلسفية نقدية للكشف عن أصولها وبنية أفكارها والمؤثرات التي ساهمت في بنائها وتطورها. وأعتقد أن هذه الدراسة تُعد باكورة الأبحاث الفلسفية في مصر عن الفلسفة اليابانية، من حيث أصولها المؤسسة وبنيتها المعرفية، التي طالما تحدثنا عنها باعتبارها إحدى الثقافات الشرقية التي يمكن إدراجها ضمن مقدسات العالم القديم في الشرق الأدنى أو فلسفات الشرق بوجه عام. ولعل ما كتب في الثقافة العربية عن الفكر الياباني ينحصر أغلبه – أو يكاد – في

أحاديث مطولة عن الجانب السياسي أو الاقتصادي أو العلمي، بالإضافة إلى تناول الصراع الدولي حول تلك الجزر التي استطاعت في فترة وجيزة القيام بثورة علمية وتكنولوجية فائقة بعد الكبوة التي مُنيت بها في الحرب العالمية الثانية وتدمير هيروشيما وناجازاكي على يد الأمريكان.

ولعل أشهر الدراسات المتداولة الآن بين المثقفين، سواء المترجمة أو التي تم إنتاجها على يد أساتذة اللغة اليابانية، ذات الصلة المباشرة بموضوع الدراسة، هي:

دراسات في الفكر والثقافة اليابانية ونظرات في تعاليم البوشيدو، للدكتور علاء علي زين العابدين، وقد حاول خلالهما الاقتراب من الفكر الياباني من خلال دراسة سيكولوجية لمنظومة القيم عند اليابانيين مع إلقاء الضوء على أخلاق الساموراي ومكانة الانتحار بوصفه من القيم التي تعكس الشخصية اليابانية. بالإضافة إلى قراءة لمفاهيم الحضارة والتنوير وأثر الثقافة الغربية على صياغة تلك المفاهيم. وكذلك الكتاب الرابع من موسوعة تاريخ الأديان الذي قام بتحرير مضمونه فراس السواح وهو يتناول الشنتو كما قدم لها ميرسيا إلياد حيث تم التركيز على الجانب الديني مع التنويه إلى التوظيف السياسي خلال عصر الميجي؛ أيضًا هناك كتاب الفلسفة اليابانية المعاصرة للروسي يوري كوزلوفسكي الذي تجاهل الأصول المؤسسة للحياة الثقافية للواقع الياباني، بينما وجه جل اهتمامه لمعالجة ما أسماه بالفلسفة البرجوازية في اليابان التي تعكس الصلة مع التيارات الكبرى في الفلسفة الغربية خلال القرن العشرين؛ كما نشر المركز القومي للترجمة عام ٢٠١٦م كتاب " إيبناغا سابورو " (تاريخ الثقافة اليابانية) ونظر فيه إلى الثقافة في ضوء التحولات السياسية التي مر بها المجتمع الياباني منذ المجتمع القبلي حتى انهيار المجتمع الاقطاعي. كما تناول جفري بارندر في كتابه " المعتقدات الدينية لدى الشعوب " التصورات والرؤى التي سادت المجتمع الياباني من منظور ديني في محاولة لربد منظومة القيم بالعبادات الرسمية لديانة الشنتة. ولعل حديث ول ديورانت، الذي يمكن إدراجه باعتباره من أوائل الدراسات التي حاولت تلمس طبيعة الواقع الياباني، حول الثقافة اليابانية بالمعنى الواسع قد اتسم بالمنحى التاريخي؛ إذ يتناول بنيتها الاجتماعية والسياسية والعقدية بجانب واقعها الجغرافي دون أن يعالج أيًا من جوانب الفلسفات السائدة. أما هيجل فقد أغفل تمامًا

في حديثه عن تطور ثقافات الشعوب، الذي كرس لها أجزاء في كتابه " محاضرات في فلسفة التاريخ، أي إشارة إلى الثقافة أو الفكر الياباني. أضف إلى ذلك بعض المقالات والدراسات العربية التي تتناول الفلسفة اليابانية من منظور مقارنة الأديان.

أما عن التناول الفلسفي فمازال مشوشًا أو غامضًا عند المعنيين بدراسة الفكر الشرقي في الكتابات العربية على وجه التحديد. الأمر الذي دفعني إلى اقتحام ذلك المجهول لتمهيد السبيل إلى دراسته ولاسيما بعد انتشار المعاهد العلمية المعنية بدراسة اللغة اليابانية في الشرق الأوسط عامة ومصر بوجه خاص. وللوقوف على طبيعة الفلسفة اليابانية كان لابد لنا من الكشف عن الأصول التى تشكلت وفقا لها العقلية اليابانية والنظام المعرفى الكامن للثقافة السائدة. وقد اقتضى ذلك الوعى بما يقال أنه القاعدة الأساسية التى يمكن من خلالها الإمساك بذلك الإنتاج الذى يمثل تراثها الخاص بكل مايحمله من حمولات اجتماعية وسياسية وتاريخية واخلاقية واسطورية. ولعل مدار الإنشغال هنا لايقف عند مجرد تحليل نص "الكوجيكى" باعتباره من الأصول المؤسسة , بل ايضا لابد من الوعى بطبيعة نسق "الشنتو" وماإذا كان فلسفة أم دين؟ وهل هو حقا انتاج أصيل للعقلية اليابانية على النحو الذى استلزم هيمنته على الساحة الثقافية فى الواقع الفعلى أم ماذا؟ ولعلي أكون قد وفقت في ذلك.

أما عن المنهج المتبع في هذه الراسة فيغلب عليه الجانب الوصفي التحليلي والسردي المقارن. وقد انحصر النقد في تقييم النتائج التي انتهت إليها أبحاث اليابانيين في صناعة الشخصية اليابانية المعاصرة.

١) فلسفة أم دين:

إذا كانت اليابان تعيش اليوم في ظل نهضة لا يمكن إغفالها في كافة مجالات الحياة، فمما لاشك فيه أن هذا التطور كان نتاجًا لسنوات طوال من التعلق الإيجابي بالحياة الدنيا والإرادة والتصميم لسلسلة الأنظمة التي تعاقبت على حكم البلاد آخذين على عاتقهم مهمة الإصلاح والتحديث في إطار الحفاظ على الهوية اليابانية، وعلى النحو الذي يؤصل لخصوصيتها الثقافية والفكرية التي تراكمت على مر التاريخ.

ولعل أكثر ما يميز الثقافة والفكر الياباني يتمثل في قدرته على استيعاب الفلسفات الأجنبية الوافدة والتكيف معها عبر مزجها بتصوراته التليدة حول العالم والحياة والإنسان. ولذا يلزم الوعي بأن الفلسفة اليابانية – إذا جاز لنا استخدام المصطلح – هي نتاج لتضافر تيارات فكرية ودينية وسياسية عديدة امتزجت جميعها في تشكيل العقلية والشخصية اليابانية التي تكشف ممارساتها الحياتية عن عدة سمات متنوعة تعود إلى ذلك التزاوج بين الوافد والموروث.

والحقيقة فإن محاولة قراءة الحضارة اليابانية وثقافتها المتنوعة لا يكشف بوضوح عن الأسباب التي جعلت اليابان منذ أقدم عصورها منفتحة أمام كل المنجزات الحضارية التي أنتجتها القارة الآسيوية، ومع عدم دقة معلوماتنا التي يمكن الوقوف عليها حول طبيعة الأعراق الأولى التي سكنت الجزر اليابانية، من أين أتت؟ وهل هي سلالة واحدة أم سلالات عدة؟ وما الخصوصية الثقافية التي اتسمت بها تلك السلالات التي عاشت حياة أشبه بحياة القبائل والعشائر المتناثرة على الجزر؟ يصبح من الصعب البحث عن جواب لسؤال: أين تكمن نقطة البدء؟

وعليه فإنه لا يمكن القول بأن اغلب التيارات الفلسفية الفاعلة في الفكر والواقع الياباني قد فرضت قسرًا على هذا الواقع من قِبَل مخططين وفلاسفة واعين، بل هو الواقع المعيش الذي صنع ذلك أو إن شئت قُل ظروف الحياة والأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الجزر اليابانية وجيرانها من القارة الآسيوية. ومن ثم فإن استحضار تلك التيارات وتأثيرها على حياة الناس عبر أشكالها الأدبية والدينية والسياسية والفنية والأخلاقية المختلفة يعود بالأساس إلى حركة التجارة والتواصل مع بلدان القارة كالهند والصين وكوريا.

لذلك عادة ما يذهب مفكرو اليابان المعاصرون إلى أن هذه الأنساق الفلسفية جميعًا قد تبلورت – داخل المناخ الياباني – في سياق ضروب العلاقات والقراءات للأصول – التي ما زالت موضع جدال – المؤسسة الفلسفة اليابانية، وبما يترتب على ذلك من أن هيمنة أحدها وإزاحة ما عداه يعني استبعاد أنماط القراءات والعلاقات – التي تبلورت وفقًا لها الأنساق المستبعدة – لتلك الأصول.

وهكذا فإذا كانت القراءة الدقيقة للفكر الياباني تكشف عن قدر ليس بالقليل من التنوع الذي يبلغ حد التباين الصارخ – أحيانًا – بين الأفكار التي هي تعبيرات فكرية عن مواقف اجتماعية ودينية وسياسية، فإنه يمكن القول إن توظيف مفهوم التجانس واستحضاره على المستويين السياسي والثقافي كان مجرد مفهومٍ إيديولوجيٍ جرى توظيفه خلال عصر الإصلاح الميجي في القرن التاسع عشر[١] ليس فحسب لتبرير الواقع الإمبريالي لحكام هذه الفترة، بل أيضًا لمعالجة قضية المساواة التي شاعت في المجتمع الصناعي على نطاق واسع، رغم أنها وقفت عاجزة أمام الفئات التي فقدت مكانتها الاجتماعية ومواردها الاقتصادية وهو ما أدى إلى خلق فئة المنبوذين ومن ثلم خلخلة المنظومة الاجتماعية. ولعل ذلك هو ما دفع علماء الاجتماع لدحض تصور التجانس الياباني واعتبار القومية اليابانية المزمع وجودها تصورًا افتراضيًا لا وجود له في الواقع العملي الذي شهد هجرات عديدة لأعراق وثقافات مختلفة، ترتب عليها أن بات الواقع يضم ما يقرب من ستة أقليات مازالت تحاول إثبات هويتها[٢]. ويعتمد العلماء المعنيين بفرضية التجانس على رصد مجموعة السياسات التي تبنتها الدولة اليابانية بمؤسساتها الثقافية وتقوم على رفض الآخر واضطهاد الأقليات ذات الثقافات المغايرة وهو ما شكل معضلة أمام هؤلاء الذين يسعون لترسيخ هويتهم كمواطنين ولدوا وعاشوا على الأرخبيل الياباني.

وعليه فإن أي محاولة لدراسة الهوية الثقافية اليابانية بمعزل عن التراث الشعبي لتلك القبائل المتمركزة على الأرض منذ مئات السنين لن يحصد شيئًا. وذلك لأن التحفير في أصول هذه المسألة سوف يضعنا أمام ما أطلق عليه مصطلح "الشنتو"[٣] باعتباره من بين أهم العناصر والعوامل المركزية التي أثمرت تلك الفلسفة التي مازلنا نتحسس الطريق إليها. فالشنتو لا يعبر فحسب عن الإيمان الأصيل للشعب الياباني العاشق للطبيعة، بل أيضًا هو النسق الذي يكشف عن طبيعة العقلية اليابانية التي تشكلت وتمت صياغتها وفقًا لإرادة سماوية فائقة منحتها التمايز والتفوق – وفقًا لأساطيرهم المؤسسة – على الأمم المجاورة. وهو المعنى الذي راح رجالات النسق الفلسفي يؤصلون له في مجالات الحياة المختلفة،

وعلى النحو الذي أصبحت معه الشنتو هي الوعي الكامن الذي اصطنعوه بوصفه المخزون الفكري الذي يكشف عن الجوهر الروحي، والعمق التاريخي، والجذور الثقافية لليابانيين.

ولعله يمكن القول أن محاولات رصد حضور هذا المفهوم في المؤلفات والكلاسيكيات اليابانية القديمة يكشف عن أنه لم يكن شائعًا لدى جماهير الناس، كما أنه لم يسود استخدامه من جانب النخب الأرستقراطية التي انشغل أغلبها آنذاك بالفلسفات والأفكار الوافدة، التي أثبتت صلاحيتها – في بلد المنشأ – في تحقيق الاستقرار ذاته على المستويين السياسي والاجتماعي. ومما يؤكد ذلك القول أن نص الكوجيكي Kojki[٤] موضوع الدراسة، الذي عادة ما يصنف محتواه باعتباره من النصوص المؤسسة للفكر والثقافة، والتاريخ، والهوية اليابانية لم يرد فيه مصطلح "الشنتو"، كما أنه لم يشار إلى أي مفهوم تدين به القبائل يكرس للتمايز بين التقاليد والتصورات التي تغاير معتقدات الجماعات الوافدة. الأمر الذي يجعلنا نسلم بأن مضمون شذرات نص " الكوجيكي " قد وضع بحكمة في زمن متأخر، عن مضمونه، ليفي بالمقصد الذي يريدونه من توحيد ولاءات المواطنين دينيًا وسياسيًا واجتماعيًا. بمعنى أنهم قد كتبوا دستورًا مُنح صفة العراقة والقدم ليصبح أهلاً للقداسة في العقل الجمعي الياباني، وذلك بردهم إلى أصل واحد رغم كل الاختلافات الحاصلة بينهم. وعليه، سواء كان القصد من تأليف وجمع مضمون نص الكوجيكي، أو باقي الكلاسيكيات اليابانية، من أجل النخبة الأرستقراطية أو من أجل محاكاة الثقافات والأنساق الفكرية والفلسفية الوافدة، فقد كانت القضية التي تمت معالجتها معروفة – إلى حد ما – بين العوام زعماء القبائل التي تسكن الجزر اليابانية باعتبارها الأيقونة التي يُحمل عليها كل مشخصات الهوية اليابانية.

ومن هنا كان لابد أن يتسع مضمون مصطلح الشنتو ليتسع في جوفه لكل العادات والتقاليد وطرائق العيش والعمل، والقصص الأسطورية المتعلقة بنشأة العالم والإنسان، ونمط الحكم الذي ينبغي تثبيته على النحو الذي جعله حقًا مفتاح الحياة الثقافية في اليابان. وقد استثمر صانعو الهوية اليابانية هذا المصطلح للتعبير عن مشخصات الهوية، وعلى النحو الذي كشف عن نوازع أنانية وسلطوية دفعتهم للإطاحة والصراع مع كل المخالفين أو المناهضين لهذا التوظيف الجديد للشنتو[٥].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف استطاع أولئك الفلاسفة المؤصلون للفلسفة الفتية – فلسفة: الكوجيكي المؤسس للشنتو – مقاومة التيارات الثقافية السائدة لدى الروح الجمعية في اليابان والمتمثلة في الموروثات الكلاسيكية للقبائل التي شكلت المجتمع الياباني الذي نتحدث عنه، ويرتد الكثير منها إلى الثقافة التاوية والكنفوشية والهندوسية؟

تطالعنا الكتابات التاريخية – التي تحاول تتبع حركة الفكر والثقافة في اليابان – بأن أثر تلك الثقافات التي توافدت على الأرخبيل الياباني حدث لا يمكن إنكاره حيث بلغ حد استعارة اللغة التي تم استخدامها في كتابة تصوراتهم العقدية وقوانينهم السياسية؛ وبما يعنيه ذلك من أن اللغة التي تم بها كتابة نص الكوجيكي في عام ٧١٢م وهو أول نص ياباني تم تدوينه – لم تكن من اختراع العقلية اليابانية أو من موروثاتها، بل تكونت من ذلك المزيج بين اللغات الوافدة من القارة الآسيوية ولهجات القبائل سكان الأرض. ولهذا كان من الطبيعي أن توظف أحرف الكتابة الصينية – باعتبار الصين صاحبة الحضور الأقوى على الجزر اليابانية – مع إضافة أحرف جديدة لتوليد أشكالٍ جديدة من الكتابة تسمح باستيعاب الألفاظ والعبارات الشفاهية التي كانوا يتحدثون بها ولم يسبق لهم تدوينها. لذا نجد معظم الباحثين اللغويين والمحللين لأصول المصطلحات يختلفون حول أصل مصطلح "الشنتو" نفسه، فبينما رده البعض إلى أصول اللغة الصينية عامة، فإذا بالبعض الآخر يذهب إلى أنه من نتاج الثقافة التاوية. وهو ما دفع البعض إلى القول بأن الشنتو ليست في الحقيقة ثقافة محلية بقدر ما هي محاولة لتوطين التاوية في اليابان[٦].

وإذا كان للمرء أن يتساءل عن السبب في الانحياز إلى مصطلح الشنتو وتثبيته باعتباره الجامع لأصول الثقافة المحلية، فإنه لن يحد إلا ما تورده المصادر من أنه المفهوم الأقرب للدلالات التي يكشف عنها مفهوم الـ " كامي " Kami[٧] الذي تفيض به الآداب اليابانية والتقاليد الشفاهية التي ترتد إلى عصور ما قبل التاريخ، وتعني الضرب الروحاني للقداسة والإجلال والكمال، The Way of Kami. وهكذا تتجلى خصوصية فلسفة الشنتو في الاعتقاد بالـ " كامي " والأعراف والتقاليد والقيم الأخلاقية وطرائق العيش التي تمارس لمحاكاة

فعل الكامي، حتى نستطيع الانتباه إلى الحياة الروحية التي يمكن خلالها التواصل مع كل أشكال الكامي بما في ذلك أرواحنا الواعية.

تقوم، إذن، فلسفة الـ "كامي" على تصور أن اليابان أرض مقدسة نتجت عن علاقة عشق بين قوتين من قوى الطبيعة الفائقة تبادلا الحب فيما بينهما فانجبا الجزر اليابانية. غير أن خصوصية الجزر اليابانية لا تقف عند هذا الحد بل تمتد لتشمل تشكل السلالة ونظام الحكم الذي تمت صياغته بقرار سماوي ينص على ضرورة أن يتقلد حكم تلك البقعة المقدسة نسل سماوي فائق ليسود الأمن والسلام[٨]. وتتمثل قيمة ذلك التصور الأسطوري في أنه أصبح القاعدة شبه المطلقة التي تقوم عليها التصورات المؤسسة للشنتو حول علاقة السماء والأرض وارتباطهما الأزلي الذي يكرس للتماثل، حيث يقع كلاهما في دائرة التقديس. وقد ترتب على ذلك الشعور الدائم بالجلال ليس فحسب لعالم الطبيعة وموجوداته، بل كذلك لكل تفاصيل الحياة اليومية. فالوجود كله يتزين بالـ "كامي" الذي تتعدد تجلياته وإلهاماته وتتنوع آثاره. فالأسلاف والأجداد والأبطال والحكماء "كامي"، وكذلك الجبال والأنهار والبحار والرياح والزلازل والأمطار هم أيضًا كامي؛ وبما يعنيه ذلك من أن كل ما يُحرك فينا الإحساس والشعور بالجلال والهيبة هو في الأساس "كامي"، بما في ذلك الطبيعة الجيولوجية القلقة للأرخبيل، ومن ثم لا مجال للحديث عن شر أصيل أو مطلق بالمعنى الحرفي للكلمة. حتى الإنسان نفسه فهو بالأساس "كامي" يحتاج فقط إلى التأمل والإنصات حتى يعي ذلك الحضور الدائم للـ"كامي" أي القداسة فيحيا وفقًا لها. لهذا كان من الطبيعي أن تتعدد الاحتفالات الشعائرية والمناسبة التي يتم خلالها تبجيل الطبيعة وقواها اللامتناهية، بما في ذلك الطبيعة البشرية، ليس فحسب للتأكيد على التواصل بين البشر والكامي، بل أيضًا – وهو الأهم – الوعي بأن كل ما هنالك تشغله القداسة. وهو الوعي الذي يتأسس على التماس النور الروحي للكامي المستقر في أعماقنا، ليصبح كل ما علينا الحرص على النقاء القلبي، والتطهر، والنظافة الفيزيقية والصدق والتواضع والعمل بجدية واحترام كل ما هنالك بما في ذلك الخصوبة والتكاثر والموت[٩]. ولأن ثمة خيطًا يربط الجزء بالكل، الفرد

بالجماعة، كان لا بد أن تشغل قيم التسامح والمحبة والتواصل والكرم وعدم الإيذاء وتقدير حياة الجماعة وحب العائلة والوطن مكانة كبرى في فلسفة الشنتو التي ساهمت في بلورة رؤى جمالية أنتجت إحساسًا عميقًا بالجمال نحو كل ما هنالك حتى أدق تفاصيل الوجود.

ولعل ذلك كله كان الباعث الأساسي لبلورة ما يُعرف في الثقافة اليابانية بأخلاق البوشيدو التي (وسمت مجتمع الساموراي) تقوم على الولاء والطاعة العمياء والفروسية والشجاعة التي تصل حد التضحية بالنفس والموت إذا استلزم الأمر ذلك، واعتبار ذلك من القيم المطلقة التي ينبغي تسييدها ليس فقط لأنها تمثل الشرف في أسمى صوره حيث التفاني في خدمة السيد والجماعة، بل أيضًا لصلتها الوثيقة بقضية حرية الوطن – وليس الفرد – واستقلاله[١٠].

ومن هنا فإنه إذا كانت كلمة الكامي التي ينشغل بها خطاب الشنتو تشير إلى الأسمى، الأعلى والفائق والمتجاوز، والمثير للجمال والجلال والتبجيل، فإنها قد احتوت – فيما يرى مفكرو الشنتو – على ما هو أكثر من مجرد الإيمان بإله أو آلهة عدة. ولعل ذلك هو ما دفع البعض إلى القول بأن المصطلح يتناول ما يمكن أن نسميه بالطاقة الحية التي تتخلل الكون موجوداته. إنها طاقة الحياة التي يحيا بها الكون ويتفاعل مع بعضه البعض، بالإضافة إلى قدرتها على اختراق أيٍ من موجودات العالم لتمارس من خلاله فعاليتها. وإذ يبدو – والحال كذلك – أن المفهوم يكتنفه الغموض والألغاز، فإن دلالاته المتشعبة قد جرى توظيفها حتى بات كل ما يخص الوجود الياباني "كامي". فالموجودات الروحية كامي والبشر باختلافاتهم الطبقية كامي، حتى إن الأرض والجزر اليابانية أيضًا تدرك بوصفها كامي[١١]. لذلك يفتخر مفكرو الشنتو بأن فلسفاتهم ومعاني مفرداتهم ودلالاتها لا تدين لشخص محدد أو فهم معين أو نص يرسخ لقواعد عقدية مطلقة. فالناس في الشنتو لا تتحدث بنفس العبارات أو الكلمات، لأنهم غير مجبورين على تكرار الكلام ذاته والمعاني ذاتها، إذ أن محور الاهتمام يتعلق بالطبيعة والمبادئ الأخلاقية التي تشكل العقلية اليابانية وتسمح بوجود حوار يكرس للتعددية في الفهم دون الدخول إلى نقاشات مذهبية تؤصل للصراع[١٢]. وهو المعنى الذي يفتح الباب أمام طريقة أخرى في الفهم تقوم على أن يختبر ويشعر كل شخص، بطريقته

الخاصة، بذلك الحضور القوي " للكامي " دون الحاجة إلى كلمات بعينها أو تصورات محددة تحدد له آفاق الاعتقاد المقبول.

وهكذا تم تضيق الهوة بين ما هو فيزيقي وما هو ميتافيزيقي، بين ما هو واقعي ومنطقي وما هو أسطوري، بين ما يُعرف بعصر الكامي وعصر البشر، حتى تلاشت الحدود بين الإنسان والطبيعة بكل مظاهرها وقواها. فالوجود البشري بشقيه الفيزيقي والميتافيزيقي، الجسد والروح / العقل، هو بالأساس جزء من الوجود الكلي يحيا ويتطور ويبدع ويستمتع بجمال اللوحات الفنية التي يرتسم بها العالم ليكون مثل الكامي التي كان يشعر بحضورها – من قبل – في كل تفاصيل واقعه.

٢) **الشنتو وصراع الثقافات**:

تشير أغلب الدراسات إلى أن قيم وممارسات الحضارة الصينية كان لها حضورًا طاغيًا في اليابان منذ القرون الأولى للميلاد، وبالأخص صور الدولة الموحدة الملتفة حول سلطة الإمبراطور المفوض من قِبَل السماء التي تمنحه الشرعية شريطة أن يحقق بنود التفويض التي ترتكز على حتمية الاستقرار والوحدة وتوفير الأمن والغذاء للرعية. ويبدو أن هذه الصورة التي ارتسمت في عقل بعض القبائل اليابانية ذات النفوذ كانت دافعًا قويًا لتأسيس دولة موحدة تحاكي الإمبراطورية الصينية، وتستند على التصورات والمعتقدات الشعبية التي تعكس الامتزاج بين التقاليد المحلية الخاصة بأغلب العشائر والقبائل الحاضرة في الجزر والأقاليم اليابانية.

ولعل هذا الميل – أيضًا – نحو تأسيس دولة مركزية كان بقصد التصدي لتلك الصراعات الحادثة بين بعض العشائر، وما يترتب عليها من اضطرابات اقتصادية واجتماعية وتزايدت حدتها نحو القرن الثالث الميلادي، حتى تشكلت ما يُعرف بدولة "ياماتو" التي عُنيت بقراءة أسباب نجاح الصين في تأسيس دولة قوية تقوم على الروابط العائلية والشخصية النابعة من الأخلاق الكونفوشية التي اصطبغت آنذاك – إلى حد ما – ببعض الدلالات الدينية من أجل تسييد وتثبيت سلطة الإمبراطور سياسيًا واجتماعيًا. ويشير عدد من الباحثين إلى أنه رغم

العلاقات القديمة والمستمرة بين الصين واليابان، فإن السجلات التاريخية والسياسية الصينية الواقعة بين القرن الثالث وبدايات القرن الخامس الميلادي تخلو تمامًا من أية إشارة للأرخبيل الياباني. لذا يعتقد أن هذه هي الفترة التي شرعت خلالها القبائل اليابانية إلى حد كبير في استلهام الأفكار السياسية من القارة الأسيوية وتطبيقها في الواقع العملي الياباني وإنشاء مملكة ياماتو(١٣).

وهنا يشار إلى أن هذه الفترة التي بدأت خلالها ملامح الوحدة اليابانية في التشكل هي ذاتها الفترة التي شرع خلالها العقل الياباني في خلق الأصول التي سوف يتم بمرور الوقت ترسيخها لتصبح سياجًا منيعًا لا يصون فحسب قدسية الإمبراطور وسياسته، بل كذلك العائلة الإمبراطورية كلها، حتى تصبح تلك المعاني والدلالات راسخة في وعي الأمة اليابانية حتى القرن العشرين وعلى الرغم من كل الاضطرابات وعمليات الإزاحة والإقصاء – بين الحين والآخر – التي حاولت النيل من سلطة الإمبراطور كحاكم فعلي ورمز للأمة ووحدتها. وإذا كان لنا أن نتساءل عن أصل الفكرة التي تسيدت وفقًا لها عائلة ياماتو على معظم القبائل والعشائر، بجانب قوتهم العسكرية، فإننا لن نجد إلا ما ترددده المصادر، وبالأخص نص كوجيكي موضوع الدراسة، من أساطير حول النسب السماوي المقدس لهذه العائلة الذي يمتد في أعماق التاريخ ومنذ نشأة العالم. وهو ما يوفر لهم دون غيرهم من القبائل شرعية السلطة التي اكتملت أركانها بدعم القصر الإمبراطوري في الصين حينما منحها اللقب الملكي الإمبراطوري(١٤). وتبدو أهمية الدلالات التي رسختها تلك التصورات الأسطورية في وعي الجمهور، رغم بساطة فكرتها ومثاليتها، في أنها بلورت علاقة فريدة بين الإنسان وطاقة الحياة والحيوية المنبثة في عالم الطبيعة وموجوداته، وهي العلاقة التي مازالت حاضرة حتى اللحظة في كل أنماط الفن الياباني.

إذن لقد كان ربط شرعية الحكم بالمقدس هو أداة العقلية اليابانية في الفرار من مأزق التشتت والنزاع الذي كان عليه الواقع آنذاك. وتجمع الدراسات على أن الحضور الفعال للفكر الصيني بشقيه التاوي والكونفوشي، الذي يعود إلى ما قبل القرن الثالث الميلادي، كان

هو السبب الرئيسي في تطور الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في اليابان. فكانت أفكارهما بمثابة معطى جاهز يصاغ وفقًا له منظومة القيم والمبادئ الأخلاقية لضبط العلاقات بين أفراد المجتمع[١٥]. حتى حينما استقبل الواقع الياباني الأخلاق الكونفوشية المزدانة بخلفية ميتافيزيقية – حيث الأثر الهندوسي – أدرك العقل الجمعي أن هذه الثقافة الوافدة لا تحمل سوى نظم تربوية ومبادئ أخلاقية وأسس حاكمة للساسة والوزراء والعمال والصناع.

أما التاوية التي عادة ما يرتبط تاريخ حضورها بحضور الكونفوشية فقد ساهمت بلا جدال في بلورة التصورات الأسطورية التي مثلت نقطة البدء التي انطلق منها نص الكوجيكي، حينما أشار إلى ظهور ثالوث مجرد، غير مجسم أو مشخص، يمثل بداية النشأة والتكوين، وهو ما فسره البعض بأنه نتاج الثالوث الصيني التاوي الذي يتألف من التاو ومبدأي الين واليانج في إشارة إلى تداخل العقل الفعال مع العناصر المشكلة للوجود[١٦]. ويبدو أن الحضور الأبرز للتاوية قد ارتبط بتلك المفاهيم التي تؤصل للاستقامة والصدق والأمانة والسير وفق الطبيعة العادلة التي يتخللها التاو / الكامي، لما يترتب على نشر تلك المعاني من الاستقرار والأمن وحتى يقنع كل فرد من أفراد المجتمع بمكانته ودوره الذي حدد له وفق قانون التاو. وهو القانون الذي يقضي بأن كل ما يطمع فيما ليس له سوف يعاقبه التاو بسيف عدالته، ليصبح العمل والكد والإخلاص هو السبيل الوحيد لتحسين الواقع.

غير أن التاوية كتيار ثوري شهدته الصين لم تحظ برضى العقل الجمعي القائد، سواء في القرون الأولى لتشكل الدولة والثقافة اليابانية أو حتى خلال الحكم العسكري الذي عمل على تهميش سلطة الإمبراطور، وذلك لأنها تزعزع أركان سلطانهم. وعلة ذلك أن التاوية تلجأ للطبيعة في توطيد أركان النظام والقيم والمعاملات الاجتماعية، وذلك يتعارض تمامًا مع ما يطمح إليه الساسة. ولعل ذلك كان نقطة ارتكاز مفكري الحركات القومية التي سعت لدعم النظام الحاكم والخصوصية الثقافية، في القرن الثامن عشر الميلادي، بدعوى استبعاد أغلب الثقافات والفلسفات التي كانت مستقرة آنذاك في الحياة الثقافية، بزعم أنها تيارات دخيلة ساهمت في إضعاف اليابان وسيادة الفوضى لفترات طويلة[١٧]. ولعل هذا هو ما حدا بأحدهم

إلى القول بأن السلطة اليابانية قد سمحت بدخول الفلسفة بوصفها آلية تتيح لها تمديد سلطانها وخدمة الدولة، ولهذا لم تستطع اليابان إنتاج أنساق فلسفية تتجاوز ما تم استعارته من القارة الآسيوية إلا بعد أن تحقق انفصال النخب المثقفة عن السلطة؛ وبما يعنيه ذلك من أن احتضان السلطة للفكر الفلسفي كان انتقائيًا بالأساس. ولذلك لم تنل التاوية ذات الاهتمام الذي نالته الكونفوشية حيث بدت داعمة لفكرة الثورة والتمرد على القواعد التي تؤسسها الدولة، ومن ثم تعمل على إضعاف حضور مفهومي الطاعة والتفاني في خدمة الدولة في وعي الناس. كما تم استبعاد فكرة التفويض السماوي للحاكم مع إمكانية سحبه واعتبار ذلك بمثابة انتهاك لقداسة الدولة وشخص الإمبراطور الذي أصبح الولاء له يعلو على الولاء للأب والأسرة[١٨].

ويبدو أن الانشغال بالكشف عن مجمل الأفكار والآليات التي شكلت جوهر الفلسفة والثقافة الصينية قد استغرق قرونًا طوالًا حتى تسنى للعقلية اليابانية إنتاج أفكار تحمل الروح اليابانية والتقاليد المراد تثبيتها على المستويين السياسي والاجتماعي. غير أن وصول البوذية نحو القرن السادس الميلادي قد حمل الكثير من التحولات والتغيرات التي طرأت على الحياة الثقافية في اليابان، وعلى النحو الذي فتح الباب أمام الحضور المبهر للفنون المتنوعة في بناء الأنساق الفكرية الآخذة في التشكل، وهو الحضور الذي يبدو أنه قد لعب دورًا جوهريًا في توجيه لغة نص الكوجيكي الذي كان ما يزال شفاهيًا. وهكذا فإن الأمر – بخصوص حضور البوذية – لا يتعلق بمجرد استدعاء تصوراتها إلى الحياة اليومية، بقدر ما يتعلق بنوع العلاقة مع البوذية التي أتاحت لها المجال لتعلب الدور الأهم في الأروقة السياسية لقرون عدة. وترتب على ذلك أن أصبحت البوذية من أكثر التيارات الوافدة التي أثرت في البنية المعرفية للشخصية اليابانية وفي رؤيتها للعالم والوجود البشري.

ولعل النخب المثقفة التي استقبلت مجيء البوذية الوافدة من كوريا بتماثيلها ومنحوتاتها ورسومها الزيتية وممارساتها الطقسية التي تكرس لتبجيل البوذا وتعاليمه، والبيئة والعلماء، وجدت في تلك الثقافة ما يتسق والنسيج الروحي الذي انطوت عليه أساطيرهم ومقدساتهم

المتوارثة عن الأجداد والأسلاف. كذلك وجد النبلاء وأفراد العائلة الإمبراطورية في تماثيل بوذا وتقديس الرؤساء والزعماء سبيلاً لفرض سلطتهم في وجدان اليابانيين ومن ثم تأصيل فكرة أنهم سلالة سماوية تستحق دون غيرها السلطة والطاعة. لهذا كان من الطبيعي أن يشرع الأدباء وكتاب السير والملاحم في وضع الأشعار ونسج القصص المؤيدة لتلك الأفكار الجامعة بين الأدب الصيني والفنون والحس الروحاني البوذي. فقاموا بكتابة سير لأكبر العائلات اليابانية وتطورت تلك الأفكار التي أوردوها حتى باتت جزءًا أصيلاً من عقيدة الشنتو التي يجب تقديسها والسير وفقًا لها. وهكذا أضحى لليابانيين طقوس واحتفالات وعادات دينية على غرار النمط البوذي، تتفق مع ظاهر الشذرات التراثية المقدسة، كما أصبح لهم أيضًا أضرحة لتكريم الأجداد والأسلاف والكامي على غرار المعابد البوذية. وإذا كانت الكتابات التاريخية استطاعت رصد تلك المشاحنات والنزاعات التي حدثت آنذاك بين المناصرين للثقافة الوافدة والقبائل اليابانية التي لم تكن تعتقد في البدء سوى بقداسة الطبيعة وظواهرها المتعددة، فإن الدعم السياسي الذي قدمه البلاط الحاكم ورجالاته لمفكري البوذية كان السبب في إدراجها كمعتقد رسمي، أو الدين الرسمي إذا جاز لنا ذلك، للدولة اليابانية[١٩].

وهنا يمكن الإشارة إلى أن تسييد المنظومة المعرفية للبوذية وشيوع تصوراتها الميتافيزيقية بين العقول المناصرة للموروث ساهم في إعادة قراءة تلك التصورات التقليدية التي تشكل الموروث الشعبي، وهو ما أدى بمرور الوقت إلى ازدهار الثقافة المحلية – أي تشكل فلسفة الشنتو – من جهة، ومن جهة أخرى إلى إنتاج بوذية يابانية تحمل بعض الأفكار الشنتوية بالإضافة إلى الأفكار البوذية الأصلية كقضية الخلاص التي تزينت بها فنون العمارة داخل المعابد والأضرحة. فعلى الرغم من افتتان العقلية اليابانية بجمال الطبيعة، فإنها لم تستطع إنتاج خطٍ فنيٍ يتماهى مع تصوراتها الميتافيزيقية حتى أدخل الفن البوذي ضمن المنظومة المعرفية للشنتو على النحو الذي أصبحت معه الفنون المختلفة تشكل جزءًا مهمًا في الثقافة اليابانية لما لها من حضور ساحر لا يقل عن سحر الطبيعة وإلهاماتها.

بدأ تنامي النفوذ البوذي تحت رعاية السلطة منذ القرن السابع الميلادي عندما أعلن الأمير الوصي على العرش آنذاك ولاءه التام للفكر البوذي، حيث لم يكتفِ بتقديم الدعم المادي والتسهيلات اللازمة لتوطين تصوراتها الميتافيزيقية في الواقع الياباني، بل أيضًا حرص على إرسال البعثات التعليمية التي ضمت أبناء النبلاء وموظفي الدولة للتعلم في المعاهد البوذية، في كل من كوريا والصين، حتى يمكن خلق نخب / طبقة مثقفة تستطيع نقل المعارف البوذية وتطبيقها في الواقع الياباني. هذا بالإضافة إلى دور تلك الإرساليات والبعثات في توطيد العلاقات الدبلوماسية خاصة مع كوريا بعد توتر العلاقات التي نتجت عن ميول اليابان لفرض سيطرتها واحتلال كوريا[٢٠]. وسواء كان هذا الدعم نتيجة إيمانه بأفكار بوذا واعتقاده في مسألة الخلاص والمخلص، كما تزعم بعض الدراسات ذلك، أو كان مجرد استراتيجية سياسية نصحه بها أحد حكماء الصين تسمح له بالتلفيق والتوفيق بين الوافد والموروث على النحو الذي يساهم في تثبيت دعائم سلطته، فإنه عادة ما تُرد بداية الفلسفة اليابانية التي راحت تتغذى على سجال الوافد والموروث إلى ذلك الحراك الثقافي الذي حدث في تلك الفترة.

وبالطبع تم توجيه كُتَّاب الملاحم والسير بجانب مثقفي الطبقة الأرستقراطية بصياغة ما يؤيد فكرته في دمج تلك الثقافات والأنساق على النحو الذي يسمح كذلك بإدراج تلك التصورات والتقاليد والمفاهيم التي توارثتها القبائل اليابانية عن أجدادهم وأسلافهم، ضمن شروط اللحظة التي يعيشها المجتمع حتى لا يتم رفض الأفكار والتصورات الوافدة ومعاداتها بالكلية. وقد استلزم ذلك ما يمكن أن نطلق عليه مجلسًا للكهنة والحكماء تكون من مهامه الأساسية نشر روح التسامح العقدي والوئام بين القبائل والعشائر المنحدرون من أصول مختلفة، وذلك لاستبعاد نقاط الاختلاف التي قد تحول دون تحقيق الوحدة المنشودة. وبعبارة أخرى إقصاء كل ما يقف عائقًا أمام بلورة المبدأ التأسيسي المتجاوز الذي ينبغي التوافق عليه من أهل الاختصاص والمنشغلين بالشأن العام والمصلحة الإنسانية بصفة عامة. هذا بالإضافة إلى تحديد خصال الإمبراطور القادم بوصفه مثلاً أعلى يحظى بموافقة القوى

السماوية، أي الكامي. وبالفعل نجح هذا المجتمع الثيوقراطي في أن يعلي من مكانة الإمبراطور للحد الذي بدا فيه وكأنه صفى السماء وكليمها، بل وخليفتها على الأرض، إلهًا مقدسًا مُنح خصال أجداده وأسلافه من الآلهة / الكامي العظام التي طهرته من بشريته وقربته من مقام البوذا مخلص البشر، والكامي الذي أنشأ اليابان وشكل شعبها، والتاو الذي هو علة التناغم الكوني، والاستقامة الكونفوشية أساس العدل والسلام.

وهكذا تحددت ملامح الحالة الثقافية التي لم تكن فقط بمثابة تطبيق عملي لرؤية النظام السياسي الذي يسعى لتوطيد نفسه وبناء مؤسساته، بل أيضًا في تشكيل وعي النخب المثقفة والطبقة الأرستقراطية الوليدة التي تحملت عبء جمع التصورات الأسطورية وحصر التقاليد الشعبية الشفاهية التي تشكل معتقدات القبائل اليابانية، من أجل صياغة رؤية كلية – وبالأخص في مجال الممارسة السياسية والاجتماعية – يجرى إخفاؤها وراء قداسة المصدر لإكسابها الديمومة والرسوخ في مخيال الأمة لتوظيفها، واستدعاؤها، كلما اقتضت الحاجة ذلك.

ولعل الارتباكات التي شهدها الواقع آنذاك، وأعني بذلك محاولة لم شتات الأفكار والرؤى والتصورات الشعبية ودمجها تحت مظلة البوذية بالذات، ارتبطت بتصاعد وتيرة استدعاء المقدسات لتلعب الدور الأكثر حسمًا في المجال العام. وبالتالي في إنتاج الدلالة والمعنى لكل قواعد الضبط السياسي والاجتماعي والثقافي واعتبارها دلالة مطلقة. ويبدو أن هذا الدور الذي ساهمت البوذية، وبقوة، في خلقه هو ما يقف وراء تدوين نص الكوجيكي، في محاولة من جانب الذات – التائهة – لإعادة تنظيم وتشكيل حياتها الخاصة وخصوصيتها الثقافية. محاولين بذلك الحد من سوالب الفرقة التي أراد البعض وضعها في بنية العقل الجمعي الياباني بغية الحيلولة بينه وبين حلم الوحدة التي طالما شغلت قادة الرأي.

ويبقى السؤال الملح: لماذا اكتسبت البوذية هذا الوضع الذي تعالى بها لتصبح العقيدة الأنسب للدولة رغم قدرة الموروث بتصوراته القبلية البسيطة على تزويد النظام بالشرعية المطلوبة؟ أم إن ما نطلق عليه الآن موروثًا قديمًا لم يكن قد تشكل إلا بعد أن تراكمت

التصورات الوافدة من كوريا والصين، وهي المراكمات التي فتحت المجال أمام تدوين النصوص التي تشكلت وفقًا لها – ما عرف لاحقًا – الشنتو؟ هل كانت الصراعات الدموية بين زعماء القبائل وقادتها خلال عمليات التأسيس دافعًا لتبني البوذية التي تحمل تصورات حول مفهومي الخطيئة والخلاص الشامل للبشرية؟ أم أن التحليل البوذي للطبيعة الإنسانية وتحديد غاية الوجود والبشري وحقيقة العالم كانت بمثابة إجابات لتساؤلاتهم التي عجزوا عن تقديم إجابات لها في ظل الطبيعة الجيولوجية المضطربة للأرخبيل الياباني؟ أم إن كثرة الضرائب التي فرضت على الناس وتم تكريسها لبناء القصور والبلاط الإمبراطوري، وما ترتب على ذلك من حركات تمرد وثورة، استلزم وجود خطاب يوضح خطورة التعلق بالمتع الدنيوية الزائلة وهو المعنى الذي عبر عنه أحدهم حينما قال: تلك الدنيا زائفة أما الحقيقة فيمثلها البوذا فقط[٢١]. وإذا كان حقًا –كما يذهب البعض – أنه لم يُروج للبوذية بين العوام في البدء، لمن إذن تم تكريس هذا الخطاب الذي يؤصل للتقشف وعدم التعلق؟

بالطبع حملت البوذية العديد من الأفكار والتصورات والممارسات غير المألوفة إلى الواقع الياباني، وبالأخص حديثها عن الماورائيات، وعلى النحو الذي بدت خلاله أكثر روحانية من الموروث المتيم بالطبيعة، لما تحمله من تصورات ترانسنتندالية جذبت العقلية اليابانية لمجال أوسع مفعم بالأسرار لم يلتقوا به من قبل. هذا بالإضافة إلى المزج بين تصوراتها الكونية التي تنشغل بالعالم الآخر والأعمال الفنية والأدبية المختلفة التي أنتجت تصورات تتعلق بالحياة المستقبلية للإنسان، بجانب التأكيد على أهمية التدريب الروحي والصفاء الذهني الذي حرصت المعابد وكهنتها على توفير المناخ الملائم له. إلا أن فكرة التغير وصيرورة الوجود التي حملتها بعض الفرق البوذية، مع ما يصاحبها من مفاهيم الفراغ والخواء، كشفت عن عدم جدوى التعلق بعالم آخر يتجاوز عالمنا ويسمو عليه لأنه يتسم بالثبات. ولعل هذا كان وراء شيوع مشاعر الرثاء والتواضع والشفقة تجاه الأشياء والموجودات، وكذلك التضامن أمام هذا المصير الحتمي الذي سوف نمر به جميعًا[٢٢].

والمدهش حقًا أن هذه التصورات والمعاني التي أنتجتها لم يسمح لها الواقع الياباني بإنتاج نزعة تشاؤمية تجاه الواقع والحياة، بل على العكس من ذلك اضطرت الفرق البوذية إلى استبعاد كل التصورات والأفكار التي ترسخ لاعتزال الواقع العملي من ثم ضبط تصوراتها المتعلقة بعلاقة الإنسان بعالم الطبيعة الذي تسكنه القداسة. ولعل هذا التحول الأخير هو ما يقف وراء تشكل بوذية الزن بخصائصها اليابانية التي حققت الموائمة مع التقاليد القديمة ليصبح تأمل الطبيعة وتبجيلها والاستماع إلى خطابها هو جوهر البوذية اليابانية. وهكذا قدمت البوذية الجديدة عدة أفكار مفادها أن في العمل الخلاص الحقيقي، فكلما قدم المرء لمجتمعه وذويه عملاً خيرًا كان ذلك بمثابة مقدمة للحياة السعيدة، وتطهيرًا حقيقيًا من كل الآثام التي ربما يكون قد ارتكبها. وبالتالي أصبح المواطن الياباني حريصا كل الحرص على تناغم مجتمعه وتهذيب أخلاقياته والإخلاص في عمله، بل وتسخير كل وقته من أجل إسعاد نفسه التي لم تشعر بالغبطة إلا برضاء الآخرين عنها وهو ما أكسبهم سمة التواضع رغم إنجازاتهم الرائعة.

ومن غير المعلوم ما إذا كانت هذه النزعة المبهجة المتسمة بالتفاؤل التي تسود كل من بوذية الزن وفلسفة الشنتو ترجع إلى تصور أصيل يتعلق بخيرية الطبيعة الإنسانية التي تقوم بالأساس على توازن المركب البشري، أم إلى الدور الهام الذي يلعبه طقس الاغتسال بالماء والتطهر الذي يمحو كل الخطايا ويزيل كل الدنس، أم أنه نتاج فكرة حلول البوذا في أعماقنا وهي الفكرة التي أعادت فلسفة الشنتو صياغتها حول النور الروحي للكامي الذي يقيم في أعماق أرواحنا الواعية.

٣) النص المقدس " الشنتو بين المأثورات الشفاهية والتدوين ":

إذا كان الشائع أنه يمكن التمييز، على صعيد التطور التاريخي للثقافة اليابانية، بين أنساق وافدة تدفقت على فترات متلاحقة وأخرى محلية تتمثل في الموروث، الذي يصعب تحديد بدايته التي ترتد إلى لحظة النشأة والتكوين، فإنه يبدو أن الوعي بأهمية لحظة التدوين وطبيعة ما تم تدوينه، لتحويل تلك التقاليد المحلية إلى تصورات ورؤى وأنظمة تفكير وسلوك، قد

راح يتزايد منذ بدايات القرن الثامن الميلادي. وهي الفترة التي شهدت تدوين أكثر من نص يهدف كل منها إلى تجميع تلك التصورات التي تضرب بجذور غائرة في التقاليد التي سادت بين القبائل العديدة التي سكنت الجزر اليابانية.

وإذ يبدو أن الغموض يحيط بالتصورات الدينية والرؤى الميتافيزيقية وغير الميتافيزيقية التي تشكل البنية المعرفية للفكر الياباني، فإنه يلزم الوعي بتنوع أصول ومصادر تلك البنية المعرفية وتعدد دلالاتها على مدى التاريخ وحتى لحظة الحداثة، وعلى النحو الذي يستحيل معه رد أيًا من تصوراتها إلى مصدر بعينه. ويترتب على ذلك أن أيًا من النصوص المؤسسة لمنظومة الشنتو هو بالأساس مزيج لتصورات فكرية ورؤى عقدية وتقاليد شعبية تداخلت مع بعضها البعض، بصورة مذهلة، حتى بدت وكأنها الساحة الرئيسة التي يمكن الحصول منها على إجابات وافية حول طبيعة الفلسفة في اليابان.

والغريب، هنا، أنه بالرغم من ذلك الحضور الدائم لتلك النصوص – وبالأخص نص الكوجيكي – التي تدور حولها كتابات مفكري الشنتو و تحليلاتهم على النحو الذي بدت فيه بمثابة معطى جاهز مطلق أو قاعدة مستقرة يقوم عليها إنتاجهم المعرفي، فإذا بنا نجدهم يؤكدون على أن الشنتو لا تدين بوجودها إلى نص مقدس أو نص مؤسس لتصوراتها، أو ترتد لشخص بعينه على غرار الأديان والأنساق التقليدية[٢٣]. إذ يرون أن الواقع وحده هو الذي أتى بفلسفة الشنتو حيث تضافرت الضرورة والمصلحة على الإتيان بها. ومن هنا تصبح مقولة " الشنتو هي الدين الأصلي لليابانيين " مقولة غير دقيقة، وذلك لأنها حتى وإن بدت لها بعض الدلالات الإيمانية فإنها في كليتها تتجاوز مفهوم العقيدة الدينية أو الإيمان التقليدي. فالشنتو منهج حياة تشكلت وفقًا لحياة الناس وتشكلت حياة الناس وفقًا لها؛ وبما يعنيه ذلك من أنها نسق فكري قادر على استيعاب الواقع وتحولاته. حتى أن المظاهر الطقسية التي تشهدها المعابد والأضرحة بين الحين والآخر وكذلك الاحتفالات الرسمية والقومية يمكن اعتبارها ضربًا من ضروب الآداب والتقاليد الشعبية أو المهرجانات الفنية التي لا دخل لها بهالة القداسة التي تفرضها الديانات التقليدية على المنتمين لها. ولعل ذلك يتفق مع ما

ذهب إليه البعض من أن العقلية اليابانية لا تهتم بالتعبير عن نفسها من خلال الانتماء إلى جماعة أو مذهب بعينه، كما أنها لا تميل إلى الأنساق العقائدية الغارقة في التعقيد. وذلك لأنها ارتبطت منذ القدم ارتباطًا صارمًا ببساطة الطبيعة وثرائها وهو ما أدى إلى الاهتمام بالنشاط البشري والمصلحة الإنسانية على نحو يفوق تعلقها بالتصورات المفرطة في التجريد. حتى أن مفهوم " الكامي "، في إطار هيمنة منظومة الأخلاق الكونفوشية قد أصبح لدى بعض مفكريها تجسيدًا للاستقامة والصدق والأمانة التي تتحلى بها أعمال الناس(٢٤).

وهكذا يصبح من بين الدلالات المتعددة للـ " كامي " أنه يمثل المبدأ أو القانون الأخلاقي المنظم للعالم والعلاقات البشرية، بمعنى أنه إذا كان المصطلح لدى البعض يحمل معنى القوة / الروح الفائقة المنتجة للكون وموجوداته، فإنه كذلك أصبح لدى البعض الآخر القوة الأخلاقية الضابطة لحركة الوجود وحياة البشر. ولهذا كان من الطبيعي أن يؤكد مفكرو الشنتو على ممارسة التأمل وإمعان النظر ليس فحسب في الطبيعة البشرية، بل أيضًا وهو الأهم في كل مظاهر الطبيعة وموجوداتها حتى يمكن الوقوف على تلك القداسة التي تفيض بها، وكذلك الوعي بمنظومة القيم التي يحيا بموجبها كل ما هنالك. ولعل هذا المعنى هو ما يدعم فكرة أن معرفة الكامي ليست من قبيل المعارف أو المعتقدات التي لابد أن يتلقاها المريد علي يد المعلم، بل هو حقيقة يختبرها الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته، وينبني عليها الوعي بأن وجوده الإنساني حدث شديد الأهمية في مسيرة الكون.

ولعل قيمة ما سبق يتمثل في أن الشنتو قد فتحت المجال أمام استيعاب كل الصور الأخرى – الممكنة وغير الممكنة – التي تروج لها الأنساق الأخرى، حتى أصبح البوذا أحد الكاميات المرئية. وهنا يمكن الإشارة إلى أنه رغم ما يفيض به تاريخ اليابان من أشكال الصراع والإزاحة على كافة المستويات، فإنه قد جرى، منذ القرن الثاني عشر وحتى نهاية فترة العزلة الاختيارية التي يؤرخ لها بالقرن الثامن عشر، انفتاح مفكري الشنتو على كل الآراء والتصورات دون تعصب في محاولة لبناء نسق جامع يحمل سمات الخصوصية الثقافية لكنه في ذات الوقت يكشف عن قدرة لهضم كل ما تم إنتاجه دون أن تنغلق على ذاتها كجماعة

منفصلة، أو مستقلة، حتى بدايات القرن التاسع عشر وقيام الحركات القومية المتشددة. وهي اللحظة التي شرع خلالها حماة الشنتو من السياسيين إلى استدعاء نص الكوجيكي – باعتباره مصدرًا صحيحًا لقصة العالم وتاريخ أفكار أجيال الأباطرة المؤهلين الذين عاشوا تجربة التواصل مع القوى السماوية الفائقة – لتحصين أنفسهم وتثبيت سلطانهم، وبالأخص استدعاء رمزية العائلة الإمبراطورية التي كادت أن تخفت سيادتها، وذلك لترويج تصور أن هؤلاء الأسلاف قد تلقوا هذا النص وصاغوه في تصورات وأفكار وقواعد للسلوك ومعتقدات لابد أن تسود لما لها من قداسة تعلو على كل ما عداه[٢٥].

ولهذا كان من الطبيعي أن يتحول هؤلاء الأسلاف وتصوراتهم وتجاربهم إلى سلطة للتغطية على أوضاع سياسة محددة. وهو ما أدى إلى إزاحة كل التصورات والجماعات المختلفة؛ وبما يعنيه ذلك من أن المصلحة السياسية وليست المعرفة كانت هي الأساس لهذه المعاني والدلالات المراد تثبيتها. وترتب على ذلك أن أصبحت أفكار الشنتو المستقاه من أساطير وحكايات نص الكوجيكي هي المؤسسة للروح الوطنية التي أريد بها التصدي لعمليات التغريب المصاحبة لذلك الحضور الطاغي للتكنولوجيا وعلوم التصنيع الغربية، بالإضافة إلى الحيلولة دون انتشار المسيحية[٢٦]. وبالتالي تحقق للشنتو حضورًا أوسع وأعمق على المستويين الاجتماعي والديني، بجانب كونها الأيديولوجيا الرسمية للدولة.

وهنا يلزم الوعي بأنه إذا كانت العصور القديمة شهدت – إلى حد ما – قدرًا من التفاعل والتعايش بين الأنساق الدينية والثقافية التي تم توطينها في اليابان، وهو ما أفضى إلى إنتاج العديد من الأفكار والتصورات التي ساهمت في إثراء الحياة الثقافية، فإن محاولة تسييد شنتو الدولة أو دولة الشنتو من جانب التيار المحافظ في العصر الحديث تسبب في العديد من الاضطرابات والممارسات المتطرفة رغم غزارة الإنتاج والتفسيرات التي دونت حول الأصول لخلق خطاب وجداني يكرس لتفوق السلالة التي ينبغي أن تسود العالم.

إذن، لم تقف أهمية نص الكوجيكي والتصورات الفلسفية المصاحبة له عند مجرد استدعائه ليلعب دورًا أساسيًا في حياة السلطة السياسية والتصدي للتحولات الاجتماعية

والاقتصادية التي يمر بها الواقع، بل كذلك في شيوع نزعة الاستعلاء التي مهدت لتحديد العلاقات مع بلدان القارة الأسيوية، مع ما يصاحب ذلك من خطابات اتسمت بالشيفونية. ولعله يمكن إسناد ما يبدو أنه شعور بالتعالي على الآخر – رغم أزمة الحداثة التي يعيشها الواقع منذ القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية – إلى صورة الخطاب الذي رسخ لضرورة إزاحة كل ما هو أجنبي لإفساح الساحة الثقافية أمام خطاب شديد الخصوصية يختص بالمسائل التي تؤصل لتمايز الإنسان الياباني عن غيره من بني البشر[٢٧]. وإذ يتوزع هذا الخطاب بين استدعاء تلك الأساطير الغامضة وإعادة تحليلها، في محاولة لرد العقلية اليابانية إلى لحظة فارقة في عمر الكون حيث كانت اليابان مركزًا للطاقة الروحية، وحديث عن ما ينبغي أن تقوم به الأمة من أجل مستقبل أفضل، فإن من الثابت أن تلك الأساطير – حتى وإن امتزجت في بعض تفاصيلها بالوافد الصيني – استطاعت الحفاظ – قدر الإمكان – على تماسك الدولة أمام التحولات العنيفة في المجالين الدينى و الاقتصاد ، وكذلك منظومة القيم التي تؤصل للانسجام والتضامن بين أفراد المجتمع.

وعلى الرغم من أن الفكر الياباني لم يكن آنذاك قد بلور تصورًا لإشكالية الوجود والماهية على غرار الفلسفة الوجودية في الغرب، فإن التعويل على الأساطير المقدسة للنص الكوجيكي كان بمثابة إشارة لأسبقية الماهية على الوجود التي حُددت وفق قيود قدرية غيبية شكلت للإنسان وجهته وطريقته. فالإنسان ما هو إلا ماهية تُشكل وجودها وتصنع تفردها لتؤدي الدور المنوط بها على مزج الحياة البشرية.

وحري بنا هنا أن نتوقف عند الأساطير ذات الصلة بتلك الرابطة التي تربط عالم السماء بالعالم الأرضي، أي بين اللاهوت والناسوت، دنيا الآلهة بدنيا البشر. وبينما تكون هذه القصص الأسطورية في كثير من الأحيان جنسية وتتسم بالعنف إلى حد كبير، فإنها تشكل جزءًا هامًا من تراث تم ترويجه ودعمه عبر الزمن من جانب مفكرين وقادة يابانيين باعتبارها تشكل الأساس الحقيقي لثقافة الأمة وحضارتها، ولتقاليدها الإمبراطورية التي تصاحبها القداسة في كل تفاصيلها. وعلى كثرة تلك الأساطير إلا أن الفكرة المركزية فيها تدور حول

قضية النشأة والتكوين التي تنطلق من الإشارة إلى آلهة ثلاث تسكن الآفاق العليا من السماء أعلاها مرتبة إله السماء المهيب، ويُدعى الإله الأعلى مركز السماء وهو المسئول عما يدور ويحدث من تغيرات كونية، يليه إله الإنتاج الأعلى ويبدو أنه المسئول عن إيجاد وتشكيل الموجودات الأرضية، ثم يليه إله الولادات المقدسة المختص بإيجاد كل الكائنات التي ليس لها جسد غير أنها حية عاقلة وتدير كل القيم والمبادئ والشرائع المخاطبة للعقل الإنساني حتى يصبح مؤهلاً للانتساب للعالم الإلهي المقدس. ولعل الطابع الصيني لهذه البداية يرتبط بالأصل الذي تحاكيه والذي يرتد إلى أحد الأفكار الكبرى المؤسسة للفلسفة الصينية التي ترد نشأة الوجود إلى ثالوث يتكون من: التاو والين واليانج. ثم تروي الأسطورة خبر وجود إلهين آخرين، ظهرا حينما كانت الأرض ما تزال رخوة أشبه ببقعة زيت طافية، أحدهما هو إله الرضى الأكبر، ويبدو أنه قرين إله الكائنات الأرضية المسئول عن ضبط الأخلاق والأحاسيس الإلهية والآخر هو الإله المقيم في السماء أبدًا المسئول عن السكينة السماوية، وعلى غرار الثالوث فقد احتجبا عن الأنظار[٢٨].

والغريب حقًا أننا لا نكاد نجد من بين شذرات هذا الجزء أية إشارة تكشف لنا عن أصول هذه الآلهة الخمسة أو عن أشكالها لأنها بالأساس قد أخفت تجلياتها، شأن ما كتب عن الثالوث الصيني أو الثنائية الفارسية. إنه حديث عن عالم أو مرحلة في عمر الكون تحيط بها الأسرار والغموض والقداسة التي يستقبلها العقل الياباني بالورع والتبجيل والدهشة، ويجعلون منه نقطة البدء ومركز التوازن الكوني الحافظ لدستور الحياة. ولعل قراءة تحليلية لما يمكن أن تمثله تلك الآلهة الخمسة يشير إلى أنها تمثل العناصر الرئيسية المجردة والمنزهة عن الكم والكيف، الوضع والحالة، الحركة والانفعال، وأنها لا تتبدت ولا تتبدل ودونها من العناصر المركبة/الآلهة ينقاد لها شوقًا.

وإذا انتقلنا من هذا السياق الذي شغلته الآلهة – الكامي – السماوية، التي أخفت مشخصاتها، إلى العالم الأرضي – إذا جاز لنا قول ذلك – سوف نجد الإله المقيم في الأرض ويبدو أنه إله الموجودات الأرضية التي تحوي الجبال والأنهار والحشرات والنباتات

والحيوانات وغير ذلك من الكائنات التي تسكن الأرض وما تحتها، ويليه إله النماء والوفرة[٢٩]. وقد حجب هاذين الإلهين أيضًا تجلياتهما كما صمتت الأسطورة عن الأدوار التي كان من الممكن أن تنسب إليهما. وتستمر الأسطورة في الإشارة إلى ثنائيات خمسة من الآلهة تتكون كل ثنائية من عنصر ذكري وآخر أنثوي في محاولة لاستعراض العوامل أو العناصر اللازمة للحياة كالأنبات والأثمار والشهوة والمتعة والخصوبة والذكورة والأنوثة والإنجاب وكل ما يبث الحيوية في تفاصيل الوجود، وكذلك لمنح بعض القوى الفائقة الفاعلة في المشهد الكوني الإطار المادي الذي يسمح لهم بالتكاثر عن طريق الاتصال الجنسي بدلاً من الانبثاق الذي ساد بين الآلهة السماوية. غير أن الأسطورة تقف طويلاً أمام الثنائي الأخير الذي يثير العديد من التساؤلات حينما نسعى لتحديد طبيعته وكمثال على ذلك: هل يمكن اعتبار هذا الثنائي بمثابة الآلهة المختصة بإنتاج الأرخبيل الياباني على وجه التحديد؟ أم أنهما انطلقا بمساعدة العناصر أو الآلهة السابقة لتشكيل الوجود كله، بكل ظواهره وموجوداته وكائناته؟ أم أنهما بمثابة آدم وحواء في المخيال الياباني حيث ربطت الشهوة بينهما حينما بصر كل منهما جسد الآخر، بالإضافة إلى رغبتهما في تحقيق الأدوار التي وجدا من أجلها حتى تكتمل سعادتهما، آلا وهي تمهيد الأرض للحياة.

وإذا ما حاولنا تجاوز تلك الأجزاء المتعلقة بتفاصيل العلاقة الجنسية التي تحققت بين طرفي هذا الثنائي الذي بدا عليه ملامح البشرية، فنجد أن النص قد منحهما قدرات فائقة سمحت لكليهما بإيجاد العديد من الظواهر الطبيعية وإنتاج القوى الكونية الحاكمة لها، على الرغم من خطاب اللوم الذي وجه للأنثى لمبادرتها بالإفصاح عن شهوتها. وهو الخطاب الذي رغم أنه لا ينكر مشروعية تلك العلاقة إلا أنه يؤسس لها القواعد والآداب التي تلتزم بالحياء والعفة واعتبار ذلك من سمات الأنثى. وهكذا تكاثر النسل وكادا أن يُكملا المهام التي كُلفا بها، حتى حانت لحظة ولادة النار، تلك الظاهرة التي تسببت في احتراق الطرف الأنثوي في هذا الثنائي، وتدعى إيزانامي Izanami، حتى ماتت وانتهى بها الحال إلى ذلك العالم المظلم الذي بدا بصورة موحشة. وهكذا ينال الموت، باعتباره المقابل الحتمي

للحياة، من أحد طرفي الثنائي الإلهي المؤسس للحياة والحيوية والمحبة على الأرض دون أن ينشغل العقل اليابانى أو يشعر بالقلق تجاه حدث الموت الذى أحد أفراد القوى الفائقة. لتأتي المفارقة، هنا، حيث جرى استبدال صورة الأنثى إيزانامي وطبيعتها الأولى بوصفها رمز للعشق والمحبة والخصوبة، إلى طبيعة مغايرة بالكلية تعمل على بث الخوف والفزع وتتوعد الموجودات الأرضية بالموت. وهكذا تبلورت – على غرار ملحمة جلجامش–صورة العالم الآخر أوعالم الموتى على نحو يكتنفه الغموض فهو عالم مظلم موحش لاسبيل للخروج منه.وإذا كان للمرء أن يتساءل عن القصد من وراء حدث الموت الذي أصاب حواء / إيزانامي، وهي واحدة من تلك القوى الفائقة – الكامي – المنتجة، فإنه لن يجد إلا ما تورده دراما النص التي حددت لها دورها حتى يمكن إتاحة المجال لانطلاق آدم / إيزاناغي Izanagi ليس فقط لإنتاج ما لم يتم إنتاجه، بل كذلك ليكمل هو وذريته، التي أوجدها بمفرده، سلسلة الأحداث التي تروي تفاصيل نشأة الحياة على الجزر اليابانية.وسواء أثمر حدث الموت عن تحول الأنثى إيزانامى إلى إلهة للموتى أم لا , فقد بدت فى صورة المرأة التى تبدع فى انتاج كل ماهو طبيعى ,بينما يظهر إيزاناغى باعتباره الرجل الذى يمكنه أن يبدع كل ماهو فائق للطبيعة. لكن الملفت للنظر أن الأسطورة تكاد تخلو من الاشارة إلى الحضور الإنسانى بماهو كذلك, إلا فى أضيق الحدود, وكأنه أريد لها أن تؤصل لدولة أو أمة عاشت عصرا ذهبيا/إلهياَ أتاحت لها سهولة الاستقرار والرسوخ على نحو لم تشهده بقعة أخرى من بقاع الأرض , حتى تبلورت الطبيعة البشرية ذات المصدر الإلهى/الفائق الذى نشهده اليوم. وتلك هى التفاصيل التي تمت معالجتها على مدى التاريخ الياباني، وبالأخص التصورات الشنتوية، باعتبارها حقائق تاريخية موحاه.

وهكذا ينقلنا النص من مشهد حزن إيزاناغي على فقد زوجته وفشله في استعادتها، ثم حالة الخوف والفزع حينما شاهد صورتها التي أضحت عليها في عالم الموتى الموحش، إلى طقس التطهر الذي أعقبه إنتاج عدد من الكائنات والموجودات والظواهر يترأسه ذلك الثالوث الذي تعالت مكانته على كل ما تم إنتاجه لارتباطه المباشر بصياغة الواقع الياباني.

ويتألف هذا الثالوث من الابنة الكبرى لإيزاناغي، وهي إلهة الشمس الأنثى، " أمايتراسوا " Amaterasu، المسئول الأول عن تأسيس النظام الإمبراطوري حيث أرسلت حفيدهامن أرض الممالك السماوية إلى الأرض فى صورة ملك جبار يرافقه زعماء القبائل الخمس–فى اشارة إلى القبائل التى كانت تعيش أنذاك– كآلهة/ كامى لتقطن الجزر ولإتمام المهمة المقدسة. وقد نسب إليها أبوها مهمة إنارة الكون كله، ثم يليها أخيها الأصغر وهو إله العواصف والبحار الذكر "سوسانو" Susanoo، الذي امتلأت الأرض من نسله واخضرت أرضها وأثمرت بصالح أعمالهم حتى اللحظة التي امتزج خلالها نسله بنسل أمايتراسوا ليمنحا اليابان تلك الخصوصية التي فاقت – كما تزعم فرق الشنتو – الشعوب الأخرى. أما ثالث أفراد الثالوث فهو إله القمر تسوكويومي Tsukuyomi، الذي اختص بحكم البلاد المظلمة، وربما يكون المقصود به إما إضاءة الأرض عند غروب الشمس أو إضاءة البلاد التي لا ترى الشمس. وبالرغم من أنه أحد أعضاء الثالوث الذي نتج عن فعل التطهر، فإنه سرعان ما يغيب من دراما المشهد ليفسح المجال أمام حاكمي العالم، أي اليابان،" أماتيراسوا" و"سوسانو"، اللذان دب التنافس والصراع بينهما، وبالرغم من كل الانجازات والإبداعات التي حققها الإله الذكر سوسانو على الأرض، فإن إلهة الشمس استطاعت أن تحصل على تأييد كل القوى الفائقة، أي الكامي، لتتوج باعتبارها المسئول الأوحد وربة الكائنات الأرضية بدلاً من أخيها. فهي الابنة الكبرى المطيعة لأبيها وجدت عندما كان يطهر عينه اليمنى، كما أنها المسئول الأول عن النور والدفء والحياة، لذا كان من الطبيعي أن يُنصب أبناؤها حكامًا على الأرض.

والحق أن مركزية الشمس كقوة سماوية داخل تفاصيل الكوجيكي والدور الحاسم الذي تلعبه في إنتاج العديد من الدلالات، التي تحول بعضها عبر ممارسات فرق الشنتو إلى رموز وأسرار تتزين بها الأضرحة والاحتفالات الرسمية، يكشف عن أنها لم تمنح السماء القداسة التي تجعلها تتمايز أو تسمو على الأرض والحياة فيها، بل على العكس من ذلك حيث بدا واضحًا أن الأرض حينما يسودها السلام والتناغم والوئام تصبح حقًا موطنًا للقداسة وساحة لبلوغ النعيم(٣٠).

وهكذا ينتهي الجزء الأول من النص – والمتعلق بالعالم والحياة الأرضية – بتصالح وتزاوج طرفي المعادلة، القوى السماوية والقوى الأرضية، أبناء آدم وحواء، لإنجاب نسلاً راقيًا يجمع بين القيم السماوية الراقية واحتياجات البشر المادية الشهوانية. وتستمر الحياة الأرضية مع هذا النسل المفطور على الكمال والمحبة والعدل والسكينة جيلاً بعد جيل، حتى تشكلت من تلك الفطرة منظومة القيم الغائرة في الشخصية اليابانية على النحو الذي تحددت معها ملامح أباطرتها المقدسين الذين تولوا حكم البلاد. وكيف لا وجميعهم منحدر من النور والضياء والمعرفة وعشق الجمال والحياء والعفة، وغير ذلك من الفضائل التي طالما وسمت الواقع الياباني.أما القسم الثانى والثالث من النص فيشتملا على أسماء الأباطرة وصفاتهم وانسابهم المتشعبة التى حوت على كل من سكن اليابان وأثر فى وحدتها , وعمل على وحدة وتآلف العقل الجمعى لمواطنيها.والجدير بالإشارة أن هذين القسمين لايمكن فصلهما عن البنية الاسطورية التى جعلها اليابانيون بمثابةالميلاد الشرعى للأسر اليابانية الحاكمة.

تلك هي الأسطورة التي تنازعت حولها القوى السياسية المختلفة والنخب المثقفة على مدى التاريخ الياباني، وبين تحليل يضعها في مرتبة الحقائق التاريخية التي لا سبيل لإنكارها وآخر يرفض اعتبارها سجلاً تاريخيًا ويرى أنها تنطوي على دلالات أعمق لأنها تتجلى عبر كلمات الكامي المقدسة، فقد كان حضورها يمثل قلب المنظومة الفلسفية لفرق الشنتو لأنها بدت الأجدر على تحقيق الصياغة الأفضل والتعبير الأجلى عن النظام العميق لتلك الثقافة اليابانية.وبالرغم من أن الأسطورة تكرس فى أغلب تفاصيلها لبيان خصوصية العائلة الإمبراطورية التى تم ترسيخ جذورها بقوى الكامى السماوية ,فإن اعادة قراءة النص مؤخرا فى أروقة الشنتو راحت تفتح الباب أمام الجماهير لتنال المكانه ذاتها حتى يمكن للإمة الخروج من أزمات الواقع المتعددة؛وبما يعنيه ذلك من أنه إذا كانت الأسطورة ترسخ لأسبقية اليابان زمنيا على الأمم الأخرى فقد آن لها أن تؤصل لتفوقها العلمى والتكنولوجى على شعوب العالم.

وترتيبا على ماسبق يمكن القول,بأن أهم السمات التى تميزت بها الشنتو نظرا لتمركزها حول نص الكوجى يتمثل فى انفتاحها على كل الأفكار والتصورات طالما أنها تفتح الأفاق أمام أفضل سبل التعايش السلمى.وعلى النقيض من البوذية وتصوراتها حول الألم وعدم التعلق,تكشف الشنتو عن حالة من العشق للطبيعة بكل تفاصيلها,وعلى النحو الذى بدت خلالها الحياة فى قلب هذا العالم مفعمة بالحيوية والجلال.ولهذا كان من الطبيعى أن يلعب التأمل دورا هاما ليس فقط لبلوغ الصفاء الروحى والتوازن النفسى والعقلى,بل كذلك لتلك القداسة التى تمثلها الطبيعة للعقل اليابانى.فالشنتوعلى غرار الكوجيكى تبلوت حول الشعور بالإمتنان والرهبة تجاه الطبيعة, وبما يعنيه ذلك من أن الكوجيكى ليس مجرد أسطورة تؤصل للهوية اليابانية,بل ايضا يجسد عشق الأسلاف والأجداد للجبال والأنهار والنباتات والحيوانات حتى أصبح هذا الشعور متأصل فى المزاج اليابانى وبالأخص فى القيم الأخلاقية.

الخاتمة:

لعل الصفحات السابقة قد أثبتت أن ما نطلق عليه عقيدة الروح الجمعي الياباني لا يمكن أن نطلق عليها دينًا أو فلسفة، وذلك لأنها تجمع بين الحقلين.

١) فالأساطير المركزية التي تنتهي إليها العقيدة قد انبثقت من الموروث العقدي الذي يمكن إدراجه ضمن المعتقد الديني، وهو خليط من البوذية والتاوية الهندوسية والكونفوشية. أما التوجه العلمي والشغف الفلسفي يمكن أن نردها إلى تحليلات الساسة المعاصرين الذين أدركوا أن الدين وحده لا يكفي لصنع حضارة أو ثقافة متطورة تستوعب ما يدور في العالم من معارف وأحداث وعادات وتقاليد وقيم ونظم سياسية ونظم اقتصادية وعلوم عصرية على نحو نقدي انتقائي يعود على الإنسان الياباني بالنفع والتفرد. لهذا كان من الطبيعي أن يجتهد اليابانيون منذ منتصف القرن التاسع عشر لوضع عقيدة للعقل الجمعي تجمع بين الدين والفلسفة في مزج يصعب الفصل بين أجزائه.

٢) تكمن أهمية مصطلح الشنتو في إمكانية اعتباره الضرب الذي يجب علينا السير فيه وتتبع انحناءاته وتغيراته والدلالات التي صاحبت تطوره، إذا ما أردنا التعرف على أصول الفكر الياباني وهوية العقل الجمعي من جهة، ومظاهر الحداثة التي نشاهدها في شتى أنحاء ميادين الثقافة اليابانية.

٣) كان موقف الشنتو من الديانات السابقة – أي الوافدة – موقفًا انتقائيًا. حيث سعى رجالات النسق ومفكروه إلى توظيف إيجابيات تلك الديانات لصالح الصورة التي وضعها العقل الجمعي القائد للشخصية والهوية اليابانية. فقد أخذوا من البوذية قداسة الحاكم بكل صفات الكائنات السماوية الواردة في الأساطير، وذلك لأنها تحمل بين طياتها العفة والحياء والعدالة والحب والإخلاص للبشر. فقد حلت صورة الإمبراطور الياباني في شخصية بوذا الناصح الأمين والمخلص لشعبه. بمعنى أنهم قدموا الواقع على الموروث ولم يستغرقوا في عبادة الماضي الذي لن يتحقق. كما أخذوا من التاوية والكونفوشية النظام الكوني من حيث هو التزام، إما انضباط في التعامل مع الطبيعة أو الانقياد إلى نماذج وقوانين تحمي المجتمع من التفكك والانهيار، وتحويل الإلزام إلى التزام وجعل الضمير والرغبة في الإصلاح فرض واجب على كل ياباني يفعله بمحض إرادته الحرة.

٤) أما الموقف الرافض للمسيحية فإنه يرجع في المقام الأول إلى جوهر العقيدة المسيحية في عيون اليابانيين. تلك التي ترى أن المسيح مخلص سماوي لم يزرع القيم المراد ترسيخها في عقول وقلوب المسيحيين باسم الواجب بل باسم الخلاص وقد تم بالفعل بموجب الإيمان بالمسيح. أما الإمبراطور الذي حلت فيه صورة بوذا بالتصور الياباني فظل محفزًا للعمل من أجل الآخرين دون أن ينتظر من السماء خلاصًا أو توبة، فالخلاص بالعمل والتناغم والمحبة والسعادة من صنيعة الضمائر العاشقة للحياة. كما رفضوا كذلك كل مظاهر الكهانة والعرافة والتمسح بالمشخصات الأسطورية، وجعلوا الموروثات في صورة احتفالات فلكلورية يُعبر عنها في الأعياد والأعمال الأدبية والفنية بعد تهذيبها.

٥) إن الموروثات اليابانية لا تختلف كثيرًا في بنيتها المعرفية عن مثيلاتها من الثقافات الشرقية التليدة، كالهندوسية والبوذية والكونفوشية والتاوية، غير أن ما يميز ثقافة الشنتو

أنها خضعت للنقد الذاتي أكثر من غيرها. فلم يكن هدف العقل الياباني مجرد تعظيم ذلك الموروث وتقديسه بقدر الرغبة في استلهامه لمواكبة الحاضر وتفعيله لاستشراف المستقبل. لذلك لم يتوقفوا كثيرًا عند البحث في صحة الشذرات والأقوال الموروثة أو التحفير حول أصول الأساطير المؤثرة، بل كان المراد هو استنباط القيمة والمقصد. ولذلك انحصرت روىء بعض المحللين المعاصرين حيال التراث في مدى فاعليته وأثره على المنتج البشري الياباني في التربية والأخلاق والاجتماع والسياسة، وقد أوضحنا ذلك في التساجل بين مفكري الشنتو.

٦) إن وحدة العقل الجمعي الياباني والرأي العام على وجه العموم لا ترجع إلى عنف استبدادي أو سلطة غاشمة، بل ترد إلى إيمان الإنسان الياباني بأن القادة الموجهين يقودون المجتمع إلى ما فيه خيره، وفقًا لفلسفة السياسة الكونفوشية التي ماثلت بين سلطة الحاكم وسلطة الأب. وعليه فلا يجوز الخروج عليهم أو عصيانهم، أو انقسام المجتمع إلى أحزاب وطوائف تهدد ذلك الكيان الذي يبدو في الظاهر أنه قابع في جزر متناثرة، في حين أن تلك الجزر ملتحمة في الداخل أي في الجوهر، فإذا كانت المظاهر خادعة فالحقيقة صادقة لأنها واحدة.

الهوامش :

(١) يذهب فرانك ب جبني Frank B. Gibney إلى أنه من بين أهم الثورات العالمية التي غيرت وجه العالم تتألق ثورة الميجي عام ١٨٦٨ نظرًا لأنها أتت بتغييرات سياسية كبرى لم تؤد فقط إلى استبدال سلطة حاكمة بسلطة أخرى، بل كذلك فتحت المجال أمام تغيير أفكار وأهداف الحكم. وبالرغم من محاولات البعض قصر أهمية تلك الثورة في استعادة سلطة الإمبراطور وإنقاذ البلاد من الاستعمار الأجنبي، أو استبدال نظام الحكم الإقطاعي بالنظام الرأسمالي، فإن القراءة الدقيقة لتلك الفترة تكشف عن أن عصر الميجي عُني بالأساس بالنهوض بالبلاد ومسايرة طابع العصر الذي غلبت عليه سمات الحداثة. وهو ما جعلها تتخطى حدودها السياسية وتلقي بظلالها على تحولات القارة الأسيوية، باعتبارها نموذجًا لتمثل الحداثة دون أن تفقد هويتها القومية أثناء عمليات التغيير بل ازدادت هويتها الثقافية عمقًا وثراءً.

ولعل هذا النجاح الذي ساهم في جعل اليابان في مقدمة الدول الحديثة آنذاك يعود إلى أنها كانت ثورة شارك في نجاحها حشد كبير من الجماهير التي تنتمي إلى كافة الطوائف والطبقات، وبما يعنيه ذلك من أنها مهدت لانتقال السلطة من الطبقة الحاكمة إلى الطبقات الوسطى في إطار تأييد شعبي جامع. انظر:

- فرانك ب جبني: الميجي: ثورة ثقافية، ضمن أبحاث: الثورة الإصلاحية في اليابان " ميجي أشن "، إعداد ناجاي متشيو وآخرون، ترجمة: عادل عوض، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص١٢٥– ص١٣٢.

ولا تقف أهمية عصر الميجي على كل ما سبق بل أيضًا في أنه فتح الباب أمام إعادة تقييم مرحلة العزلة التي فرضتها اليابان على نفسها في الفترة السابقة لعصر الميجي. وهل كانت بحق هذه العزلة سببًا في تخلف البلاد أدى إلى الخضوع لمعاهدات غير متكافئة مع الغرب؟ أم أنها ساهمت في الحفاظ على الثقافة اليابانية الفريدة التي ازدهرت خلال فترة العزلة التي عاشت خلالها اليابان في حالة من السلام لم يشهدها بلد آخر من بلدان العالم؟ ولعل نقطة البدء لفهم عصر الميجي تنطلق من الوعي بشعار المرحلة الذي أصبح الأيقونة التي التفت حولها المنظمات السياسية والنخب المثقفة والجماهير المتعطشة للتغيير والإصلاح آلا وهو "بجلو الإمبراطور واطردوا البرابرة" وهو الشعار الذي يؤكد على ضرورة العودة إلى الأصول المؤسسة للعقلية اليابانية، كما سيتضح في الصفحات التالية.أدوين رايشاور: اليابانيون، ترجمة: ليلى الجبالي، مراجعة: شوقي جلال، عالم المعرفة، عدد ١٣٦، ١٩٨٩م، ص١٠٣ – ص١١٣.

- أدوين أولدفاذر ريشاور: تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما، ترجمة: يوسف شلبي الشام، دار علاء الدين للنشر، ٢٠٠٠م، ص٨٦ – ص١٥٠.

(2) Dharitri Chakravartty Narzary: The Myths of Japanese "Homogeneity". www.Journals.sagepub.com/doi/pdf/10.1177/000944550404000308

(٣) تجمع أغلب الدراسات على أن الظهور الأول لمصطلح " الشنتو " كان نحو القرن الثامن الميلادي في أحد النصوص الكلاسيكية والمسمى نيهون شوكي Nihon shoki الذي عادة ما يُقال أنه كان بمثابة محاولة لإرضاء القبائل اليابانية ذات النفوذ التي تجاهلها نص الكوجيكي موضوع الدراسة كما سيأتي لاحقًا. ويشار إلى نص نيهون شوكي على أنه تضمن ثلاثة جمل وردت خلالهم كلمة " شنتو " في إشارة إلى المعتقدات والتقاليد التي تسود بين القبائل اليابانية، وبما يعني أن الكلمة في البدء كانت تعني كل ما يعتنقه الإنسان ويمثل ثقافته. وفي المقابل يذهب البعض إلى أنه بعد البحث والتنقيب عن وجود المصطلح في الآداب اليابانية القديمة لم يعثر على أي أثر له، باستثناء ظهوره لدى بعض الطوائف الدينية الجديدة الوافدة، وهو الرأي الذي يرسخ لمسألة أن المصطلح ليس مفهومًا يابانيًا بالأساس. فالشنتو كلمة صينية تشير إلى المسار الملغز للطبيعة وما تتضمنه من قوى سحرية. لذلك فهو يعد من المفاهيم التاوية المرتبطة بمسألة الإيمان بالتاو، هذا بالإضافة إلى حضور المفهوم في النصوص البوذية الوافدة من كوريا والصين للإشارة إلى تعاليم بوذا، وكذلك إلى تلك الكائنات التي تشغل مرتبة أدنى من مرتبة البوذا. وهكذا يبدو أن المصطلح كان يستخدم في بعض الكتابات الدينية والثقافية في غضون القرون الوسطى اليابانية، إلى أن تم استخدامه بقوة في العصر الحديث باعتباره المعبر الأوحد عن القومية اليابانية ليتسع معناه وتتعدد دلالاته بما يتجاوز مسألة الاعتقاد الديني.

- Kuroda Toshio: Shinto in the History of Japanese Religion, trans by: James C. Dobbins and Suzanne Gay.
www.univie.ac.at/rel-jap/k/images/0/03/kuroda_1981.Pdf.
- Dr. Sokyo Ono: Shinto: Way of Kami, Singapore, 1962, pp. 19-21.

(٤) يُعد نص " الكوجيكي "، أي سجل الشئون القديمة، أقدم كتاب تمت طباعته في القرن الثامن الميلادي، ويتكون من ثلاثة أجزاء تحتوي على الأساطير المؤسسة للأمة اليابانية أرضًا وشعبًا وحكومة. ويُقال أن القصص والروايات التي يتضمنها ظلت تتناقل شفاهيًا جيل بعد جيل حتى أصدر أحد أباطرة أسرة ياماتو – أسرة استمرت تحكم اليابان منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن الميلادي – المختلف على اسمه – فهناك من يذهب إلى أنه يُدعى " تيمو " وآخر يذهب إلى أنه يُدعى " جينمي " (٦٦١–٧٢١م) – الأمر بجمع تلك القصص والروايات وحفظها في كتاب يمثل الذاكرة الحضارية لليابان. لكنه توفى قبل اكتمال النص وطبعه. في حين تذهب رواية أخرى إلى أن النص قد اكتمل بالفعل مع أحد الأباطرة عام ٦٢٠م لكنه فقد في الحريق الضخم الذي حدث عام ٦٤٥م. غير أن الرواية الأكثر شيوعًا تذهب إلى أن عمليات الجمع قد بدأت مع أحدهم نحو القرن السابع الميلادي واكتملت الطباعة مع آخر لتخرج النسخة للنور في هيئة كتاب عام ٧١٢م. ويُذكر أن النص دون في البداية بلغة صينية رديئة، ثم أعيدت طباعته مرة أخرى عندما استحدثت أحرف جديدة يمكنها التعبير عن المعاني والدلالات التي تتضمنها اللغة اليابانية الصوتية، فأعادت للنص حيويته التي كاد أن يفقدها في

الصياغة الأولى. وتكمن قيمة هذا النص التراثي في أن مضمونه حاضر في الممارسات الحياتية للشعب الياباني، ورغم الطابع الأسطوري الذي يغلب على مضمون النص والألغاز التي لم يستطيع العقل الياباني فك رموزها، فإنه كان بمثابة الدرع الثقافي في مواجهة عمليات التغريب التي تعرضت لها اليابان، أولاً: مع التبشير بالمسيحية نحو القرن السادس عشر الميلادي ثم ثانيًا: خلال الانفتاح على الحداثة الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانية. والكتاب بالكامل مكرس لإثبات الأصل السماوي للجزر اليابانية على = = النحو الذي بدت وكأنها مركز الكون والجسر الواصل بين السماء والأرض وهو التصور الذي رسخ لقداسة الجزر اليابانية ومظاهرها الطبيعية.

- د. صلاح قنصوه وآخرون: قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم، دار الكلمة، ٢٠٠٤م، ص٤٢٠.
- Emi Joanne Foulk: The Jeweled Broom and the Dust of the World: Keichu, Motoori Norinage and Kokugaku in Early Modern Japan, Los Angeles, 2016, pp. 128-135.
- A translation of the Kojiki or " Records of Ancient Matters ", by: Basil Hall, Japan 1919, pp. 14-17.

(٥) أدوين أولد فاذر ريشاور: تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما، سبق ذكره، ص١٠٦-١٤٠.

(6) Kurode Toshio: Shinto in the History of Japanese Religion, op. cit.,

- Jodeph M. Kitagawq: Japanese Religion, In: The Religious Traditions of Asia: Religion, History and Culture, London, 2002.

(٧) يرتبط مفهوم " الكامي " بفلسفة الشنتو، فيذهب البعض إلى أن الكامي هو غاية الجانب الإيماني في الشنتو. كما يشير مصطلح الكامي إلى الأرواح أو القوى النبيلة والمقدسة التي تثير داخلنا الشعور بالتبجيل نظرًا لفضائلها ونفوذها. وهنا يلزم التنويه إلى أن الكامي لا تشير إلى كينونة أو إله مستقل ومفارق – كما يرى البعض ذلك – بل إن كل الموجودات والكائنات تمتلك هذا الكامي؛ وبما يعنيه ذلك من أن كل الموجودات يمكن أن نطلق عليها كامي أو على الأقل لديها إمكانية الكامي. ومع ذلك تتجنب بعض فرق الشنتو استخدام المفهوم، الذي هو بالأساس مصطلح يشير إلى التبجيل، في الإشارة إلى أفراد أو موجودات عادية.

وإذ يشير التكوين اللغوي لمصطلح الشنتو أنه يتكون من مقطعين: المقطع الأول: shen/shin وتشير إلى الكامي الذي يترجم خطأ ليعنى إله، والمقطع الثاني too/do ويعني طريق أو ضرب، فإنه قد بدا واضحًا أن السبب وراء انتحال ذلك المصطلح التاوي أنه الأقرب للتعبير عن تلك القوى – المرئية وغير المرئية – التي يتم التعبير عنها بكلمة "كامي ".

- Dr. Sokyo Ono: Shinto: Way of Kami, Singapore, 1962, pp. 19-21.

وفي هذا الصدد يذهب أحد مفكري الشنتو إلى أنه على الرغم من الأصول الصينية لكلمة "كامي" إلا أنها تعكس تصورًا يابانيًا خاصًا يشير إلى عناصر الطبيعة وقواها الفائقة. وبالتالي يصبح الكامي هو كل ما يثير في المرء

مشاعر الاحترام والتبجيل والإعجاب والرهبة والخوف والدهشة سواء كان زهرة أو طائر أو جبل أو مسطح مائي.

Fujiyo Hamabe: the concept of kami in Shintoism and its Influence on Japanese Ethics and Aesthetics, academia. edu/27787358/The concept of_kami in shintoism and its Influence on Japanese Ethics and Aesthetics by Fujiyo Hamabe

(٨) كوجيكي "وقائع الأشياء القديمة "، الكتاب الياباني المقدس، نقله إلى العربية د. محمد عضيمة، التلوين ٢٠٠٥م، ص١٠٤ – ص١١٠.

(9) Motohisa Yamakage: The Essence of Shinto, Japan's Spiritual Heart, trans by: Mineko S. Gillespie and Others, London 2006, pp. 132, 133.

(١٠) د. علاء علي زين العابدين: نظرات في تعاليم البوشيدو، القاهرة ٢٠١٠م، ص١١ – ص٢٦.

(11) W. G. Aston C. M. G.: Shinto: The Ancient Religion of Japan, London, 2017. www.library.um.edu.mo/ebooks/b283bolo2.pdf.

وهنا يلزم التنويه بأنه رغم غلبة النزعة الروحانية في التعامل مع عالم الطبيعة وموجوداته بالإضافة إلى المعاني التي تدرج تحت مفهوم الـ " الكابي "، فإن هناك من يرفض استخدام كلمة إله أو آلهة كمحاولة لتقريب الفهم وإيضاح القصد، وذلك للتأكيد على أن الشنتو لا تعرف كلمة إله بالمعنى السائد للكلمة. في حين يلجأ مفكرون آخرون إلى توظيف كلمة آلهة أو معبودات لتقريب المعنى المراد إيصاله. ولعل وعيًا بسياق مجمل الشعائر والاحتفالات التي تمثل الجزء الديني من خطاب الشنتو يكشف عن أن هناك العديد من الـ كامي التي يُعتقد بوجودها ودورها الفاعل في حياة الناس ولكن لا يخصص لها شعائر محددة ينبغي أداؤها. ولعل ما يدعم ذلك حرص مفكري الشنتو على وضع كلمة " كامي " أو " طريق الكامي " عنوانًا لمؤلفاتهم للمفارقة بينها وبين كلمة إله. بينما تحرص الكتابات العربية على استخدام كلمة إله وآلهة في الإشارة إلى مفهوم الـ " كامي " وعلى النحو الذي يسمح لهم بإدراج الفلسفة اليابانية في إطار الأديان حتى يتسنى تصنيفها إما في دائرة التوحيد أو الشرك. كما اختلف مؤرخو الأديان على تحديد طبيعة التصورات الميتافيزيقية اليابانية، فذهب البعض إلى إدراجها ضمن الديانات المؤلهة التي تؤمن بوجود قوى روحية يرد إليها الوجود بما فيه من موجودات، بينما ذهب البعض الآخر إلى وضعها ضمن الديانات الأسيوية التي تؤمن بالدين الطبيعي وما يرتبط به من تصورات حول الحلول.

(12) Motohisa Yamakage: The Essence of Shinto, Japan's Spiritual Heart, Op. Cit., pp. 19-42.

(13) Jose M. Kitagawo: Japanese Religion, Op. Cit.

(١٤) إيبناغا سابورو: تاريخ الثقافة اليابانية، ترجمة: علاء علي زين العابدين، مراجعة: أحمد محمد فتحي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م، ص٣٤–٣٥.

(١٥) عادة ما يشار إلى أن منظومة القوانين التي شكلت الدستور الأول للأمة اليابانية، الذي يؤرخ له بالقرن السابع الميلادي، بأنها شيدت على غرار الدستور الصيني الذي يتبنى منظومة القيم الكونفوشية، المرجع السابق، ص٧٠–٧٥.

([16]) Joseph M. Kitagawa: Japanese Religion, Op. Cit.

([١٧]) يُعد موتوري نوريناجا Motoori Norinaga (١٧٣٠-١٨٠١م) من أشهر مفكري الشنتو والحركات القومية المناصرة للسلطة في اليابان. وقد قدم شروحًا مطولة لنص الكوجيكي، بلغت أربعة وأربعين جزءًا، باعتباره نصًا لا يصور فحسب حقيقة اليابان شعبًا وأرضًا بل كذلك يوضح الفرق الكبير بين السلالة اليابانية وحضورها في المشهد الكوني وباقي الأعراق والسلالات التي تقطن العالم. كذلك يُعد من أشهر نقاد التاوية والكونفوشية، وبالأخص محالات مفكري الكونفوشية لتطبيق ما أسموه " حق الثورة على الحاكم " وترك بلادهم أو مقاطعاتهم للبحث عن حاكم صالح يتبنى أفكارهم، إذ انتقد موتوري بالأساس فكرة اتهام الحكام بالفساد. ويبدو أن ذلك كان وراء الاهتمام الذي منحه لنص الكوجيكي باعتباره يقدم صورة نقية لسلسلة الأباطرة السماويين الذين تولوا شؤون الأمة اليابانية التي ينبغي أن تستعيد ذلك التبجيل للبلاط الإمبراطوري بإقصاء التصورات الكونفوشية الوافدة. انظر:

- James W. Heisig and Others: Japanese Philosophy, A source Book: edited by: James W. Heisig and Others, University of Hawai Press 2011, pp. 457-460.

([18]) Japanese Philosophy,
Encyclopedia.com/humanities/encyclopedia-almanacs-Tramscripts-and-maps/Japanese-philosoply

([١٩]) يذهب أحد الباحثين إلى أن مصطلح الديانة اليابانية لم يظهر إلا في عام ١٩٠٧م مع مؤسس الدراسات الدينية في اليابان ويُدعى أنيساكي ماساهارو Anesaki Masaharu الذي ذهب إلى أن كلمة دين في الثقافة اليابانية لم تكن قط تعني ديانة خاصة وموحِدة لليابان، بل كانت وما تزال كلمة دين تستخدم في الإشارة إلى الأديان المتنوعة التي توافدت على الواقع الياباني واستقرت على النحو الذي جسد معنى التعددية في الفهم والاعتقاد. وبالتالي لم يكن مصطلح دين الدولة اليابانية أو الديانة اليابانية ينطوي على أي شكل من أشكال التمييز في الاعتقاد بقدر ما يعكس المصطلح النزوع النفسي تجاه كائنات فائقة لامتناهية العدد. وهو الفهم الذي لم يرسخ فحسب لاحتواء الآخر والتعايش مع مقدساته، بل أيضًا جعل من الثقافة اليابانية ساحة قادرة على استيعاب كل أشكال الاعتقاد.

- Isomae Junichi: Deconstructing Japanese Religion, A Historical Survey, Japanese Journal of Religious Studies 32/2:235-248

أما حقيقة النزاع الديني الذي اندلع خلال توطين البوذية في القرن السابع فقد انتهى بإصدار مرسوم من الأمير الحاكم عام ٦٠٧م يؤكد من خلاله على أن أسلافه الأباطرة " قدسوا كل أشكال الكامي السماوية والأرضية "، انظر:

- إيبتاغاسابورو: تاريخ الثقافة اليابانية، سبق ذكره، ص٥٩.

(٢٠) يشار إلى أن الأمير شوتوكو – القرن السادس الميلادي – الذي كان وصيًا على العرش انحاز للبوذية انحيازًا كبيرًا حتى أنه عكف على دراسة الجانب الفكري للتصورات البوذية سواء القادمة من كوريا ومحملة بالميتافيزيقا الهندوسية أو تلك التي أتت من الصين بعد أن استوعبتها الكونفوشية. كذلك ينسب إليه إلقاء العديد من الخطابات التي حرص خلالها على تبني التصورات البوذية ليس فقط للتوفيق بين الثقافة السائدة التي تنحاز للواقع والثقافة الوافدة التي تؤصل لزيف العالم والحياة وصيرورتها لصالح التمسك بالبوذا، بل كذلك لبلورة مجموعة من = = القيم والمبادئ تجمع مقدسات الأنساق الثلاثة البوذية والكونفوشية والتاوية لما في ذلك من نفع كبير للبلاط ووحدة الأمة.

والغريب حقًا هو اختلاف الآراء وتباينها حول مدى معرفة العوام بتلك الأنساق ومقدساتها وبالأخص البوذية التي تسيدت المشهد باعتبارها الدين الرسمي أو الأيديولوجيا الرسمية للدولة. فبينما يذهب فريق من الباحثين إلى أن البوذية لم يكن لها حضورًا بين الجماهير حتى القرن الثاني عشر وما بعدها، وهي الفترة التي اتسمت بالفساد السياسي، وتوالي الاضطرابات السياسية، فقد ذهب فريق آخر إلى أن العوام لم تعرف من البوذية سوى الممارسات السحرية والطقوس الملغزة التي تجلب المسرات وتحول دون وقوع المصائب. وهو الرأي الذي يقوم على أن الكهنة والطبقة المثقفة لم تكن فئات حرة بل كانت تبشر وتتحدث بما تسمح به الدولة فقط؛ وبما يعنيه ذلك من أنه لم يكن مطلوبًا تثقيف الجماهير واطلاعهم على كل التصورات الدينية والفلسفية التي حملتها الأنساق الوافدة حتى يمكن إسكات الاختلافات والنزاعات الوارد حدوثها.

- Joseph M. Kitagawa: Japanese Religion, Op. Cit.

–إيبناغا سابورو: تاريخ الثقافة اليابانية، سبق ذكره، ص٥٣–٥٩.

(٢١) إيبناغا سابورو: تاريخ الثقافة اليابانية، سبق ذكره، ص٥٧.

(22) Fujiyo Hamabe: the concept of kami in Shintoism and its Influence on Japanese Ethics and Aesthetics, Op. Cit.,

(23) Motohisa Yamakage: The Essence of Shinto, Japan's Spiritual Heart, op. cit., pp. 43-57.

- Mark cartwigh: Shinto, www.world history.org/shintio/

(٢٤) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: دكتور إمام عبدالفتاح، مراجعة: عبدالغفار مكاوي، عالم المعرفة، عدد ١٧٣، القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٨٦–٢٨٨، ٣١٣.

(٢٥) وهنا يلزم التنويه إلى أن استحضار الماضي ممثلاً في الأساطير والتقاليد القديمة لم يكن يقصد مواجهة طغيان الحاضر والمستقبل بحمولاتها الغربية فقط – وهو ما أدى إلى إدراج تلك الأساطير ضمن المقررات الدراسية للتعليم قبل الجامعي – بل أيضًا من أجل صياغة دستور وطني يشهد حضورًا قويًا لمسألة الأصول المؤسسة للأمة اليابانية وسيادة الإمبراطور بوصفه رمز الوحدة والمحدد للهوية اليابانية.

Marcin Lisieck: Myth and mythologization in Ideology and Politics. The Mythdogization of Japanese Identity in the Meiji Period

www.research gate.net/publication/300421482_Myth_and_ mythologization _in_ideology_and_politics_the_ mythologization _of_japanses_identity_in_ the_meiji_period

(٢٦) تشير المصادر إلى أن السلطة العسكرية التي تولت حكم اليابان نحو القرن الخامس عشر الميلادي قد احتضنت البوذية على غرار الأسر السابقة ليس فقط لكونها داعمًا قويًا لسلطتهم، وبالأخص منظومة القيم التي أنتجتها البوذية للساموراي مما ترتب على ذلك ظهور قادة بوذيين مقاتلين بجانب رهبان التهذيب الروحي، بل أيضًا لتوظيفها في صد بعثات التبشير المسيحية التي رافقت حركة التجارة وتدفق السفن الأجنبية على السواحل اليابانية.

- Masaharu Anesaki: History of Japanese Religion with special Reference to the Social and Moral life of the Nation, Japan 1923, pp. 13-15.

وقد استمر هذا الحضور بالغ المركزية والرسوخ للبوذية حتى بعد طرد تلك البعثات وملاحقة كل من اعتنق المسيحية داخل اليابان. وقد ترتب على ذلك المزيد من تغلغل الفكر البوذي في كافة مناحي الحياة حتى أصبح من العسير التمييز بينها وبين الموروث الشعبي الذي كان يمثل الخصوصية الثقافية لليابان.

- أدوين أولدفاذر ريشاور: تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما، سبق ذكرهن ص٦٧-٧٢.

وخلال عصر الإصلاح الميجي والانفتاح على الحداثة الغربية ظهرت الحاجة مرة أخرى إلى أيديولوجيا قادرة على تضييق الساحة الثقافية أمام الأفكار والتصورات الغربية ذات المنحى المسيحي. وبالطبع لم يكن هناك سوى التعويل على التقاليد المتوارثة – باعتبارها تمثل خصوصية الأنا اليابانية – التي تم إدراجها في نص الكوجيكي ليصبح هو حجر الأساس في إعادة بناء سلطة البلاط الإمبراطوري والدولة والسلف الإلهي. وهكذا تم توظيف الأسطورة لإنتاج ذاكرة وطنية وحضارية للأمة اليابانية يمكنها الحد من انتشار الفلسفة الغربية ومفاهيمها حول الحرية والديمقراطية والذات الفردية.

- Fujiyo Hamabe: the concept of kami in Shintoism and its Influence on Japanese Ethics and Aesthetics, op. cit.

(٢٧) يُعد موتوري نوريناغا Motoor Norinaga (١٧٣٠-١٨٠١) من أشهر مفكري الشنتو الذين مهدوا الطريق أمام الحركات القومية التي تسيدت مسرح الأحداث خلال عصر الميجي. لذا عادة ما يصنف بوصفه من رواد الحركة الوطنية الحديثة التي بلورت شعار " بجلوا الإمبراطور واطردوا الأجانب ". تخصص في دراسة التراث الروحي الياباني وتحليل الأعمال الأدبية ذات المنحى التاريخي، وأنتج موسوعة لتفسير نص الكوجيكي تجاوزت الأربعين جزءًا. لا تقف = = أهمية موتوري على استدعاء النص وإلقاء الضوء عليه، بل كذلك – وهو الأهم – في المعالجة التي قدمها له بوصفه نص مقدس يحتوي على القصة الشفاهية الصحيحة لقضية الخلق كما تم نقلها بلغة القوى الفائقة – أي الكامي – إلى أحفادهم أباطرة اليابان؛ وبما يعنيه ذلك من وجوب الاطلاع على النص في

صورته اليابانية الأصلية بعيدًا عن المعاني والاستعارات الصينية. ولذلك استخدم المناهج اللغوية المتاحة آنذاك للكشف عن أقدم بنية كانت للنص، لينتهي إلى أن النص وحي يكشف عن إعجاز القوى السامية وطرائقها التي يصعب على من هم دون السلالة فهمه أو استيعاب أحداثه التي تصور أحداث تاريخية ووقائع حقيقية.

كذلك انشغل موتوري بنقد المدرسة الكونفوشية التي تناولت النص باعتباره مجرد مراوغات وحيل سياسية يتم توظيفها كلما اقتضت التحولات السياسية ذلك. وبالطبع انتقد موتوري هذا الادعاء باعتباره هرطقة أريد بها زعزعة استقرار الأمة ووحدتها، مبينًا أن التناقضات التي قد تبدو للبعض خلال قراءة النص تعود إلى طبيعة أعمال الكامي الملغزة التي لا تخضع لقواعد المنطق البشري الصلدة، فالنص ينطوي على سرد حقائق سلمتها الكامي الفائقة " آماتيراسو " – مجازًا إلهة الشمس – إلى حفيدها الذي أسس دعائم البلاط الإمبراطوري ومنح أرض اليابان المقدسة سلالة متمايزة.

James W. Heisig and Others: Japanese Philosophy, A source Book, Op. Cit., pp. 459-460, 472-482.

وبينما كرس موتوري جل اهتمامه لترسيخ قداسة النص ولغته من داخل النص ذاته على حساب الأفكار والتصورات، فإن هيراتا أتسوتاني Hirsta Htsatane (١٧٧٦–١٨٤٣) راح يؤسس لتلك القداسة بالإشارة إلى اتساق مضمون النص مع العلوم الغربية الحديثة والرواية التوراتية المتعلقة بالطوفان وسفينة نوح. وذلك لبناء تصور يتجاوب مع معطيات النص يجعل من اليابان أعلى نقطة في العالم ومن ثم الأقرب إلى جنة السماء. هذا بالإضافة إلى تفسيره لحدث الموت وعالم الأموات الموحش في إطار بعض الشذرات التي استعان بها من خارج نص الكوجيكي وعلى النحو الذي سمح له بالإشارة إلى وجود عالمين متوازيين، أحدهما مرئي هو عالم الأحياء ويسوده حفيد السماء، والآخر عالم مستتر يسيره كامي أرضي، ويترتب على ذلك أن الأموات تتواجد في هذا العالم المستتر الموازي لعالمنا وتعمل على رعايتنا ومتابعة أحوالنا. وهو المعنى الذي أريد به تقديم تصورًا مغايرًا للخلود والخلاص البوذي.

Ibid., pp. 461-463.

([28]) Translation of the Kojiki or Records of Ancient Mattes, trans by: Basil Hall Chamberlain, op. cit.,

ولعله يلزم التنويه إلى أن أحداث هذا السرد الأسطوري يشغل من ص٦٧ إلى ص١٤٨فى النسخة الإنجليزية, أما فى النسخة العربية فتبدء الأسطورة من ص١٠١ حتى ١٧٦.

وتجدر الإشارة إلى أن النسخة الإنجليزية للنص لم ترد فيها كلمة إله أو إلهة. ويبدو أن المترجم قد ألزم نفسه بما ورد في النسخة اليابانية الأصلية. وهو ما جعلها في الحقيقة شديدة الغموض على النحو الذي يصعب معه اكتناه القصد. في حين أن النسخة العربية حاولت فك هذا الغموض غير توظيف كلمة الإله حتى تيسر للقارئ الإلمام بهذا الحديث المفعم بالقوى الفائقة / الكامي التي يشير إليها النص. ومن أجل الوضوح آثرنا في هذا الجزء التزام نهج النسخة العربية.

(٢٩) وهنا يلزم الإشارة إلى الاختلاف الوارد بين النسخة العربية والنسخة الإنجليزية فبينما تشير الترجمة العربية إلى الإله الثاني في المجموعة الأرضية بوصفه إله الغيوم الوافرة وهو ما يفيد أنه المسئول عن حجب الرؤى أو المعارف والأنوار وحامي الستائر التي تفصل بين عالم الأسرار السماوي والعالم الأرضي، فإذا بالترجمة الإنجليزية تشير إليه بوصفه القوة المسئولة عن النماء الوافر والرفاهية في إشارة إلى أهم خواص العالم الأرضي الذي تسعى موجوداته لازدهاره وتنوع موجوداته. ولذلك تم تبني الدلالة التي قدمتها الترجمة الإنجليزية لأنها بدت الأقرب إلى السياق، خاصة وأن أحداث الأسطورة اللاحقة تكشف عن ارتباط وتواصل دائم بين مملكة السماء ومملكة الأرض. Ibid., p. 75

- كوجيكي، (وقائع الأشياء القديمة) الكتاب الياباني المقدس، ترجمة دكتور: محمد عُضيمة، سبق ذكره، ص١٠١.

(٣٠) ولعل تحليل الصفحات الأخيرة من تلك الأسطورة يكشف عن أن تبادل السلطة أو تسلم قوى السماء سيادة الأرض لم يكن إلا تأكيدًا لقيمة الأرض ومكانتها، تلك المكانة التي ظلت لفترات طويلة حائلاً أمام شيوع ممارسات الزهد والتقشف أو اعتزال الواقع بحثًا عن عالم آخر.

- كوجيكي، من ص١٥٠ إلى ص١٧٦.

المصادر والمراجع

أولاً : العربية

١) **أدوين رايشاور**: اليابانيون، ترجمة: ليلى الجبالي، مراجعة: شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد ١٣٦، ١٩٨٩م.

٢) **أكيفومي فومورا**: أديان اليابان الكبرى، الشنتو والبوذية، مجلة الاستعراب الأسيوي، مركز البحوث والتواصل المعرفي، دار المنظومة ٢٠٢١م.
mandumh.com/Record/1145048

٣) **إيبناغا سابورو**: تاريخ الثقافة اليابانية، ترجمة: علاء علي زين العابدين، مراجعة: أحمد محمد فتحي، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٦م.

٤) **جفري بارندر**: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة الدكتور: إمام عبدالفتاح، مراجعة الدكتور: عبدالغفار مكاوي، عالم المعرفة، العدد ١٧٣، ١٩٩٣م.

٥) **سمير عبدالحميد نوح**: الخطاب الديني في الفكر الياباني
www.japan-saito.blogspot.com/2008/01/blog-post-09.html

٦) **د. صلاح قنصوة ود. حسن حماد وآخرون**: قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم، دار الكلمة لوجوس، القاهرة ٢٠٠٤م.

٧) **عبدالفتاح محمد شبانة**: اليابان: العادات والتقاليد وإدمان التفوق، مدبولي، القاهرة ١٩٩٦م.

٨) **علاء علي زين العابدين**: دراسات في الفكر والثقافة اليابانية، القاهرة ٢٠٠٦م.

----------: نظرات في تعاليم البوشيدو، القاهرة ٢٠١٠م.

٩) **فراس السواح وآخرون**: موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الرابع، الشرق الأقصى، دار التنوير ٢٠١٧م.

١٠) **كوجيكي**: " وقائع الأشياء القديمة " الكتاب الياباني المقدس، ترجمة دكتور: محمد عُضيمة، دمشق ٢٠٠٥م.

١١) **ول ديورانث**: قصة الحضارة، الشرق الأقصى " اليابان "، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، الجزء الخامس من المجلد الأول، بيروت، بدون تاريخ.

المصادر والمراجع الأجنبية:

1) **Basil Hall:** A transition of the Kojiki, or " Records of Ancient Matters ", Japan 1919.
2) **Dharitri Chakravartty Narzary:** The Myths of Japanese Homogeneity www.Journals.sagepub.com/pdf/10.1177/000944550404000308
3) **Emi Joanne Foulk:** The Jeweled Broom and the Dust of the World: Keichu, Motoori Norinage and Kokugaku in Early Modern Japan, Los Angeles, 2016.
4) **Fujiyo Hamabe:** the concept of kami in Shintoism and its Influence on Japanese Ethics and Aesthetics www.academia.edu/27787358/the_concept_of_kami_in_shintoism_and_ its_Influence_on_Japanese_Ethics_and_Aesthetics
5) **Hajime Nakamura:** Ways of Thinking of Eastern Peoples: India – China – Tibet – Japan, Delhi, Without date.
6) **Isomae Jun`ichi:** Deconstructing "Japanese Religion", A Historical Survey, Japanese Journal of Religious Studies 32/2:235-248, www.Jstor.org/stable/30234062
   - ----------:Reappropriating the Japanese Myths: Kojiki and Nihon Shoki www.academia.edu/334572171/Reappropriating_the_Japanese_Myths_Motoori_Norinaga_and_the_creation_Myths_of_the_kojiki_and_Nihon_Shoki
7) James W. Heisig, Thomas P. Kasulis John C. Maraldo: Japanese Philosophy, Asource Book: edited by: James W. Heisig, Hawai Press 2011.

8) Japanese Philosophy, encyclopedia.com/humanities-almanacs-tramscripts-and-maps/Japanese-philosoply
9) **John Krummel:** Philosophy and Japanese Philosophy in the World, European Journal of Japanese Philosophy 2, 2017. www.academia.edu./34962337/Philosophy_and_Japanese_Philosophy_in_the_world
10) **John Nelson:** Myths**,** Shinto and Matsuri in the Shaping of Japanese Cultural Identity www.researchgate. net/publication/291260088 January 2003
11) **Joseph M. Kitagawa:** Japanese Religion, in: The Religious Traditions of Asia: Religion, History and Culture London, Routledge 2002.
12) **Kazumi wild:** The Kojiki or Records of Ancient Matters, The Story of Ancient Japan, Pro Quest 10752280, 2018 https://iro.uiowa.edu/discovery/0llowa_INST:ResarchRepostiory/12730612600002771?#13730806750002771
13) **Kuroda Toshio:** Shinto in the History of Japanese Religion trans by: James C. Dobbins and Suzanne Gay. www.univie.ac.at/rel-jap/k/images/0/03/kuroda_1981.Pdf.
14) **Masaharu Anesaki:** History of Japanese Religion with special Reference to the Social and Moral life of the Nation, Japan 1923**.**
15) **Merin Sever:** Japanese Mythology and Nationalism: Myths of Gensis, Japanese Idenlity and Familism www.academia.edu/28282485/Japanese_Mythology_and_Nationalism_Myths_of_genesis_Japanese_identity_and_familism
16) **Mikail Boz:** the Japanese Creation Myth, The Violation of Taboos and construction of the construction of Modernity in Profound Desires of the Gods https: //doi.org/10.17572/mj2020.2.334353
17) **Motohisa Yamakage:** The Essence of Shinto, Japan's Spiritual Heart, Trans by: Mineko S. Gillespie and Others, London 2006**.**
18) **Dr. Sokyo Ono:** Shinto, The Kami Way, Singapore, 1962.

19) **Takeshi Matsumae:** The Myth of the Descent of the Heavenly Grandson www.Jstor.org/stable/1178480
20) **Thomas P. Kasulis:** Japanese Philosophy www.rep.routledge.com/articles/overview/Japanese-Philosophy
21) **W. G. Aston C. M. G.:** Shinto: The Ancient Religion of Japan, London, 1917.
22) **Xiaofetu and Wendyxie:** The Kojiki / Nihon Shoki Mythology and Chinese Mythology: Theme, Structure and Meaning Religions 2021,12,896. https://doi.org/103390/re/12/00896 www.mdpi.com/2077-1444/12/10/896